جبل عامل

تحت الاحتلال الصليبي

صَفحاتٌ مجيدَة مجهولة مِن تاريخه

الشيخ د. جعفر المهاجر

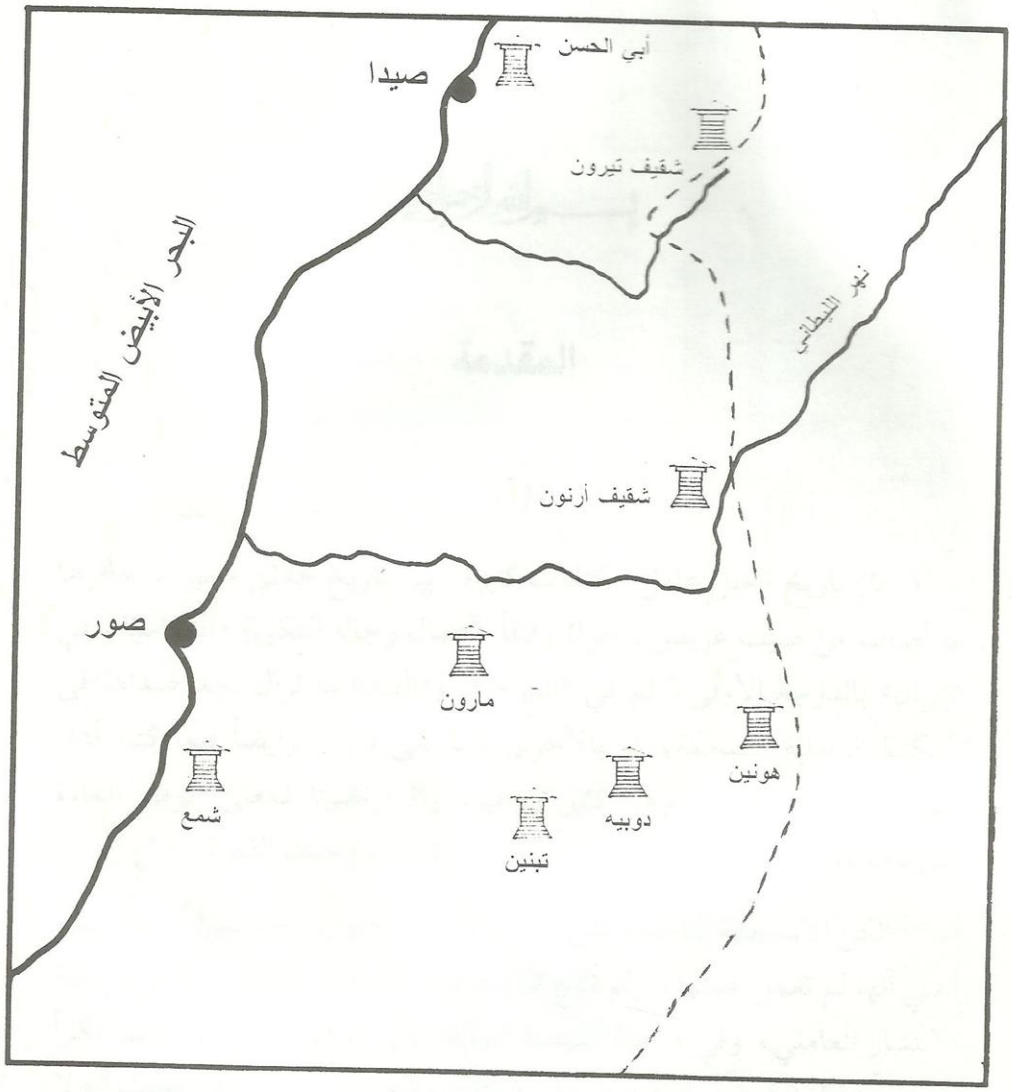

" جبل عامل " تحت الإحتلال . وتبدو المنطقة المحتلة مفصولة بخط متقطع . كما تبدو التحصينات الرئيسية التي بناها المحتّلون.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

(1)

فاز تاريخ (جبل عامل) بكتابات كثيرة. بين تاريخ حَدَثي وسيرة. حافزها ما أصاب من صيت عريض، جزاءً وفاقاً لأعمال رجاله الفكرية والسياسية. في (إيران) بالدرجة الأولى، ثم في (العراق) و (الهند) ما نزال نجد صداها في المكتبة العاملية الضخمة، او بالأحرى فيما بقي منها. وأيضاً فيما كتبه أهل السِّير والتاريخ عنهم. وهو كثير ووافٍ، إذا ارتضينا لمعنى الوفاء المادّة التاريخية الأولية، التي يستخدمها المؤرخ في تركيب وحبك القصة.

لكن الاستجابة الناجحة على الحافز ظلّت محصورة ومحاصرة في ميدانها، أعني أنها لم تعمل عملها، ولم تنتج تاريخاً قابلاً للتركيب والنقد، إلا في مرحلة الانتشار العاملي، وفي مرحلة النهضة السابقة على الانتشار والمتصلة بها فكراً ورجالاً.

فكأننا في هذا أمام حافز على مستوى رفيع جداً من الأمانة. بحيث إنه يعمل عمله إلا في دائرته الخاصة. أما قبل مرحلة النهضة، وإلى حد ما قبل مرحلة مقدماتها وإرهاصاتها، أي القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد وما قبله، فما من تاريخ على أي مستوى حتى الشفوي. وإنما هناك أسطورة. مثلما يكون دائماً عند غياب التاريخ. وعلى كل حال، فإنها عند مَن يأخذ بها لا تفسّر الكثير.

الأمر طبعاً لم يكن أمر حافز وحاضر وغائب. فنحن نعرف أن الحافز موجود دائماً. وأن كل الشعوب تعمل على أن يكون لها تاريخها الخاص مكتوباً أو شفوياً. فإن لم تجده لجأت إلى الأسطورة. وما هي إلا تاريخ مرموز.

إن غياب التاريخ في مرحلة ما قبل النهضة العاملية له أسبابه طبعاً. في رأسها أن أصحابه اقتُلعوا اقتلاعاً من مواطن عيشهم في (الأردن) و (فلسطين)، بسبب الغزو الصليبي وما رافقه من هَول. فانقطعت صلتهم المادية بأرضهم وتبعاً بتاريخهم. وذلك هو الظرف النموذجي الذي ينزاح فيه التاريخ تاركاً الفسحة للأسطورة. ثم إن منزلهم الجديد، (جبل عامل) لم يكن أكثر من تجمع ظرفي، لا علاقة لهم به من مثل ما تعنيه الأوطان لأهلها. عاشوا فيه لمدة تقل قليلاً عن القرنين، تحت وطأة احتلال قاسٍ سلبهم كل شيء مما يتصل بالحياة المعنوية. ولم يُبق منهم إلا على ما يوجهه في مصالحه. في ذلك الأوان كان التاريخ قسمة بين المحتلين من جانب، ومقاريعهم من المسلمين من جانب آخر. وكتب كل من الفريقين التاريخ من منظوره. وطبعاً لم يجد أهل (جبل عامل) مَن يكتب تاريخهم الخاص، إلا في أحوال نادرة جداً، حيث يتقاطع مع تاريخ أحد ذينك الفريقين.

أما بعد انبعاث النهضة، أي منذ أواسط القرن الثامن عشر للهجرة / الرابع عشر للميلاد، فقد اختلف الأمر. النهضة منحت (جبل عامل) معنى الكيان. كيان سُداه ولحمته الثقافة. والكيان صنع أمجاده. والتأريخ، أ ’ني الكتابة التاريخية، هي ابن شرعي لهذين، فانبعثت الكتابة التاريخية. وكان طليعتها كتاب اكتسب بسرعة صفة الطليعي والمؤسس. ذلك هو (أمل الآمل في علماء جبل عامل) لمحمد بن الحسن العاملي.

ذلك تفسير واضح وبسيط لغياب التاريخ العاملي قبل النهضة وانبعاثه معها. اعتقد أن القارئ بغد أن يطّلع على ما تقدم يستطيع أن يقرر دون صعوبة أن مفتاح تاريخ (جبل عامل) إنما هو في الفترة التي كان إبانها تحت الاحتلال. وأعتقد أيضاً أن هذه الحقيقة ستصبح أكثر قوة ووضوحاً لديه بعد أن ينتهي من قراءة هذا الكتاب.

(2)

حين تقدم إلى القارئ تحت عنوان (جبل عامل تحت الاحتلال الصليبي) فإن هاهنا ما ينبغي إيضاحه.

إن صورة (جبل عامل) تبدو باهتة جداً في كا ما كتبه المؤرخون ووصل إلينا عن فترة الحركة الصليبية. ومثل كل الذين هم خارج اهتمام المؤرخ السلطوي، فإنه لا يذكر إلا حين يصادف أن يتقلطع ذكره مع الضرورة التي تأخذ بلب ذلك النمط من المؤرخين. أعني ذكر ذوي السلطان وأعمالهم بما هو مناسب لما هو يُتوقع منه، من إضاءة هنا وتعتيم هناك وتبرير هنالك، وفقاً للحاجة. لكن يصح أ، نردد هنا المأثور المعروف (المصاب إذا عم هان). فالحقيقة أن الإنسان العادي أينما كان، سواء في (جبل عامل) أم في غيره، لم يحظ من مؤرخي الفترة إلا بالحد الأدنى من العناية. إلى درجة أن الوصفين مؤرخ. بل نجدهما عند الفارس الشاعر أسامة بن منقذ في كتابه (الاعتبار)، وعند الرحّالة ابن جبير الكناني في كتابه الشهير (الرحلة)، فمن هنا لا عجب إطلاقاً في أننا لا نجد الكثير مما يعيننا على الكلام بالتفصيل الكافي عن حياة ابن (جبل عامل) تحت الاحتلال.

في المقابل فإننا نجد إضاءة ساطعة لعناصر صورة موضوعها أهل الجبل أنفسهم، مؤداها أنهم كانوا مع محتلي بلادهم يسن المسالمة والتعاون، لم يعدو ذلك أبداً. ولا شك عندنا أن بعض ماقيل في هذا السياق مما يمكن تبريره أخلاقياً، بالنظر إلى عجز القائل عن تقويم موضوع كلامه تقويماً

صحيحاً، يأخذ في الاعتبار مُجمل الظروف التي اضطرب فيها الناس آنذاك. وبالنظر أيضاً إلى غضبه التلقائي العفوي، وهو يرى نمطاً من أنماط التعايش بين المسلمين وبين مستعمري أرضهم. حتى لو كان مما فرضه ميزان القوى بين المسلمين عموماً وبين الصليبيين. لكن بعضه الآخر اختلاق وتحريف للأحداث عن حقيقتها. رمى منه المؤرخ إلى إلقاء مسؤولية بعض ما حفلت به الفترة من آثام حُكّام مسلمين على طرف ضعيف وعاجز عن الدفاع عن نفسه. لأنه تحت الاحتلال أولاً. ثم لأنه يفتقر إلى الحد الأدنى من أدوات الاطلاع على ما نُسب إليه بهتاناً. وهو مقدمة موضوعية للدفاع في وجه أي اتهام.

من جهة أخرى، فقد جرى التعتيم تعتيماً شبه تام على دور أهل (جبل عامل) في جهاد المحتلين . لا لشيء إلا لأن المؤرخ، فيما يبدو، أراد أن يكون فضل الجهاد كل الفضل لأولياء نعمته لا شريك لهم ولامنافس.

ثم خلف من بعدهم من المؤرخين المحدثين من ثبت كل ذلك. بأن ردد الاتهامات / الإدانات دون تدقيق، وعجز عن فهم الإشارات القليلة التي نجت من سياسة التعتيم تلك عن دور أهل (جبل عامل) في التحرير. ومن هذا وذاك بين الناس، على مختلف مستويات اهتماماتهم بالموضوع، فكرة من شقّين يقول أولهما، أنهم كانوا من المحتلين بين مسالمين أو متعاونين. وأنهم كانوا في أحسن الأحوال في موقف المتفرّج. ويقول ثانيهما، إن الفضل في التحرير مُنحصر في العناصر العسكرية- السلطوية من سلاجقة وأبوبيين ومماليك على التوالي. ونحن نعتقد أن تلك الأحكام تفتقر إلى قدر كبير من الدقة. وما نريد بهذا الكلام أن نُصادر على البحث ونستبق نتائجه. بل أن نهيء القارئ للدخول فيه مستوعباً مشكلاته الأساسية.

(3)

سنعالج مشكلات البحث، التي يُجملها اسم الكتاب وتفصلها هذه المقدمة في مطلبين.

ـ **المطلب الأول**: وفيه تاريخ وصفي لمراحل احتلال (جبل عامل) من قبل الصليبيين، وتأير ذلك على نشأته سُكّانيّا. مع عناية خاصة بوصف حياة الناس تحت الاحتلال. وفي هذا المطلب سنُفرز فصلاً خاصاً للأمير حسام الدين بشارة العاملي. بوصفه أول سلطة وطنية قامت على أرضه. وبوصفه أيضاً بطلاً من أبطال التحرير.

ـ **المطلب الثاني**: وقفيه مراجعة نقدية لصورة (جبل عامل) كما نقرأها في مختلف المصادر المعاصرة. وكما عكستها بعض المؤلفات الحديثة. ترمي إلى تصحيح وتصويب أفكار شائعة عن أهل (جبل عامل) في فترة غير تزويق صورة صاحب السلطة. وفي هذا السبيل فإنه لا يتورّع عن الاختلاق والتزوير المفضوح. لكن بعضها الآخر ارتكب بقلب سليم. لكن آفته التسرّع ونقص التدقيق. لكنهما كلاهما، وإن اختلفا في الميزان الأخلاقي، فإنهما من التجنّي الذي لا مبرر له. مما استدعى قراءتهما من جديد تحت عنوان الكتاب.

(4)

ختام هذه المقدمة أن أقول:

إن العناية بتاريخ (جبل عامل)، وأكثر تاريخ ضائع، هو فعل وفاء لهذه البقعة الخيّرة المباركة، التي وُلدت في الآلام. وخلال تسعة قرون من تاريخها المستمر حتى اليوم لم تلقَ غير صنوف العسف والعدوان والإهمال.

ومع ذلك فإنها لم تتوقف يوماً عن العطاء ولم تكفّ عن أن تكون مصدراً لكل ما هو طيّب لكل ما ومَن يتصل بها. فكراً وعلماً وجهاداً وخيراً.

أملي أن أكون قد وفيت بعض ما عليّ. وأدعو المولى سبحانه أن يوفقني للتمام. والحمد لله.

جعفر المهاجر

بعلبك 11 محرم الحرام 1421ه

16 أيار 2000م

توطئة

(1)

بتاريخ 23 جمادى الأولى 518ه/ 7 تموز 1124م سقطت مدينة (صور) بيد التحالف به الوصي على مملكة (بيت المقدس) الصليبية وليم دي بوز (نسبة إلى مدينة البندقية الإيطالية) ذوي السطوة المالية والعسكرية، خصوصاً البحرية. مما كان له رنة حزن عميقة، تجاوبت في مختلف الأنحاء. فقد كانت (صور) (من أحصن المدن وأمنعها)، على ما وصفها المؤرخ المعاصر عز الدين ابن الأثير في كتابه (الكامل / حوادث سنة 518). فضلاً عن أنه بسقوطها غدا الساحل الممتد من (طرابلس) حتى (عسقلان) كله بيد الصليبيين.

بالنسة إلينا، وتحت العنوان الذي نكتب، فإن سقوط (صور) يعني أن البلاد العاملية، ساحلاً وجبلاً، باستثناء رقعة صغيرة من شمالها، قد أصبحت تحت الاحتلال. لكن لهذه اللحظة الحزينة ما سبقها. وما كان سقوط المدينة العنيدة إلا بعد أن صمدت للأعداء ربع قرن من الزمان. تكاتف في أهلها وأهل (جبل عامل) ومَن أعانهم على أن يتجنبوها ذلك المصير. وهي على كل حال لم تسقط إلا صلحاً، بعد أن استُنزفت طاقة أهلها على الصمود. لذلك فإن علينا أن نعود بالقصة ربع قرن إلى الوراء.

(2)

بتاريخ 7 جمادى الثانية 493/ 15 تموز 1099م اقتحم الصليبيون مدينة (القدس) بعد حصار لم يطُل أكثر من أربعين يوماً. والحقيقة أن تلك الأيام الأربعين كانت من الأيام الفاصلة في تاريخ المنطقة بأكملها. امتد أثرها المباشر على زهاء القرنين من بعدها. فالاستلاء اليسير على المدينة المقدّسة، بما لها من قيمة معنوية عظيمة عند المسلمين، وبموقعها المتوسط في (دار الإسلام)، كشف كم أن المنطقة هشّة سهلة الاختراق. وفتح شهيّة الغزاة ومَن وراءهم على المزيد من المكاسب. ولو أنها صمدت ولم تسقط لتبدّل مسار الحركة الصليبية. بل وربما انتهت عند هذا الحد، لعجزها عن تحقيق هدفها المعنوي الأساسي.

في (القدس) الأسيرة ارتكب المحتلون واحدة من أبشع المذابح. وخلال أسبوع كامل مضوا يُقتّلون أهلها، دون تمييز ما بين رجل وامرأة وطفل. بحيث لم يخرج أحد منهم حياً. وقد وصف فوشيه الشارتري، قسّيس قلئد الحملة، في كتابه (تاريخ الحملة إلى القدس/ 75) المذبحة الرهيبة بكلمات لا تقل استهتاراً بالنفوس البريئة عن القتلة أنفسهم. ختمها بأبيات من الشعر تقول:

(وبسيوف ممُشرعة ركض رجالنا في المدينة

لا يستبقون أحداً حتى أولئك الذين يستعطفون الرحمة

وتساقط الجميع كما يتساقط التفاح العفن من الأغصان المهزومة)

ويقول ابن الأثير في (الكامل / حوادث سنة 493) أن عدد الذين قُتلوا

في (المسجد الأقصى) وحده بلغ سبعين ألفاً (منهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم وزُهّادهم، ممن فارقوا الأوطان وجاوروا بذلك الموضوع الشريف).

(3)

أيضاً بالنسبة إلينا، وتحت العنوان نفسه، نقول: إن سقوط (القدس) بما تلاه من فظائع مهولة، كان النذير لسكان كل الجوار بالمصير الرهيب الذي ينتظرهم حين تطالهم سيوف الغزاة. فسارعوا إلى الفرار تاركين أوطانهم. وخَلَت المدن والقرى والمزارع من أهلها. واتجه النازحون إلى أقرب الجبال إليهم. وما كان هناك إلا (جبل عامل). فامتلأ الجبل بالسكان بعد أن كان شبه يباب. وكام ممن نزح أهل (طبرية)، وأهل مزارعها الكثيرة التي كانت تطيف ببحيرتها العذبة. وهي كانت مقر أكبر تجمع سكاني في (وادي الأردن). كما كان منهم أهل (نابلس). وهي كانت مقر أكبر تجمع في (فلسطين) بعد (القدس). إلى غيرهما من مختلف بلدان (الجليل). وكانت (طبرية) عاصمة التشيّع في حنوب (الشام) وكان كل أهلها شيعة. كما كان نصف أهل (نابلس) منهم. فذا بيان علّة امتلاء (جبل عامل) بالسكان، وعلّة هويته المذهبية. مما يرى المؤرخ أثره في دخوله التاريخ فجأة بعد الغزو الصليبي، من مختلف أبوابه، خصوصاً السكانية والثقافية، بعد أن كان غائباً لا ذكر له. ومن هنا نعرف أن (جبل عامل)، الذي سيدخل التاريخ فيما بعد بوصفه ظاهرة ثقافية ذات امتياز، ما هو من وجهة نظر سكانية إلا عرض من أعراض بعثرة الصيغة السكانية التي كانت قائمة في (وادي الأردن)و (فلسطين)، ثم إعادة تركيبها من جديد. وكم لهذا في تاريخ الشعوب من أمثال. فترى البلدان والأقطار قد اكتسبت من بعد الحروب وضعاً جديداً غير الذي كانت عليه من قبل. ولمن يرغب في تفصيل هذا الكلام الموجز أن يقرأ الفصل المخصص ل (جبل عامل) من كتابنا (التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية).

الفصل الأول

الاحتلال ومراحله

1- متى امتد الاحتلال إلى (جبل عامل)

2- المرحلة الأولى من الاحتلال.

3- المرحلة الثانية.

4- لمرحلة الثالثة.

١ متى امتدّ الاحتلال إلى (جبل عامل)

(2)

بتاريخ 11 ربيع الثاني 493 / 23 أيار 1099م اجتاز الطريق على البرّ المواجهة لمدينة (صور) جيش جرّار، من الفرسان والرجّالة الذين يضعون علامة الصليب على صدورهم. ولم يعرض الجيش الغريب للمدينة الحصينة بسوء. لأنه كان يريد (القدس) دون سواها. وأغلق أهلها أبوابها. ومضوا يراقبون الجيش الغازي وهو يتخذ طريقه نحو الجنوب. ووقف مقاتلوها على أسوارها العالية في حالة استعداد للقتال. ولم يحصل أدنى اتصال بين الطرفين. فين حين أن مدناً مثل (طرابلس) و (بيروت) و (عكّا) سارعت إلى إعلان ما يشبه الخضوع للغزاة، وأمدتهم بالأموال والمؤن. بل إن أهل (بيروت) تعهّدوا بالدخول في طاعة الصليبيين والاعتراف بالتبعيّة لهم، إن هم نجحوا في الاستيلاء على (القدس) (عاشور: الحركة الصليبية: 1:239).

كان ذلك أول اتصال بين البلاد العامليّة والصليبيين. وقد رأينا أنه كان اتصالاً سطحيّاً جداً. أملت وضعه هذا حصانة المدينة، وأ، الغزاة كانوا مشغولي القلب بالاستيلاء على (القدس). لكنه لم يكن النهاية. فبعد سنوات قليلة انبسط الاحتلال نحو (جبل عامل). وكان احتلالاًمتفاوت الشدة والاتساع. اضطر فيه أهله أيما اضطراب زهاء مائة وسبعين سنة.

كان الاتصال التالي مذخوراً لما بعد تحقيق الغزاة هدفهم الأساس. فما أن استولوا على المدينة المقدّسة، واستقرّت أمورهم فيها، حتى اتجهوا نحو

توسيع رقعة مملكتهم. بالاستيلاء على ما لم يكونوا قد استولوا عليه من (فلسطين). ثم عهد أول ملك صليبي على (بيت المقدس)، جودفري بوايون، إلى الأمير تنكر النورماني بفتح إقليم (الجليل). فاحتلّ مدينة مقتلة (القدس)، كما قلنا آنفاً. ثم حصّنها تحصيناً قوياً لتكون مركزاً لإمارته، ومنطلقاً للغارة على ما والاها.

(2)

من المؤكد أن الاحتلال لحق بمن نزحوا إلى (جبل عامل). ومن المؤكد أيضاً أن المحتلين جاءوه من جنوبه. أي من (فلسطين)، حيث استقرت نواة القوة الصليبية، واتخذت (من القدس) عاصمة لها. عبر (طبرية)، التي اتخذها المحتلون قاعدة لهم، كما عرفنا. ومعلوم أن (طبرية) غير بعيدة عن أطرف (جبل عامل) الجنوبية.

على أننا لا نعرف بالتحديد متى وصل إليه. لأأن المصادر التاريخية، من شرقية وغربية، تسكت عن احتلال (جبل عامل) بوصفه حدثاً بارزاً، مستقلاً عن مجمل الأحداث التي تلت تأسيس المملكة الصليبية. ومستقلاً عن السكوت فيما يبدو، إلا لأنه كان امتداداً هيّناً حصل دون مقاومة. لأن (جبل عامل) كان في ذلك الأوان مجرد تجمع ظرفي لبشر نازحين مرعوبين. انقلعوا فجأة من أوطانهم ومن حياتهم الهانئة المستقرة. واضطروا اضطراراً إلى نزول تلك البطاح الفقيرة، التي لا تُقاس بمنازلهم السابقة الخصبة المهيأو للاستثمار الغنية بالمياه والثمار. يُغالبون أسباب العيش، ويكدحون ابتغاء إشادة بُنيتها. فضلاً عن أن وضع القوى الإسلامية في المنطقة عموماً كان بمجمله إذ ذاك وضع هزيمة، أناخت بثقلها على النفوس، وزادت من وهن المنطقة

وهشاشتها. بحيث أن حكام المنطقة قبع كل منهم في حوزته، لا همّ له إلا حفظ نفسه وحياطة سلطانه، بالاسترضاء حيناً وبدفع الأتاوات للمحتلين مالاً أو عيناً أحياناً. وطبعاً كان لذلك انعكاسه على أهل الجبل. أي أنه كان يفتقر إلى المقومات النفسية والموضوعية للصمود والقتال، ولا مطمع له في أي سند خارجي. فمن هنا، فيما يبدو امتد الاحتلال الصليبي إليه دزن أن يُصدر الحدث ما يُلفت نظر مختلف المؤرخين إليه، فيسجلوه فيما سجّلوه من تلك الأيام الحافلة بالأحداث الجسام، التي كان لها أثرها العظيم في المستقبل القريب والبعيد.

بيدَ أننا نملك إشارتين تقولان ضمناً متى لحق الفرنجة بنُزّال (جبل عامل) وضمّوه غلى ممتلكاتهم، وبالتحديد إلى مملكة (القدس)، يؤخذ منهما أن الأمر لم يطُل بين ذلك الامتلاء، أو شبه الامتلاء، السكاني الذي صار إليه الجبل في الظرف الذي وصفناه فيما فات، وبين وقوعه في قبضة المحتلين. وأن أهله ما إن استقر بهم المقام، وظنوا أنهم قد نجوا بأنفسهم مما كانوا يخافون، حتى وجدوا أنفسهم قد وقعوا تحت الاحتلال. لكن لا ليقتلهم، كما فعل بمن أوقعهم سوء حظهم سابقاً تحت رحمته، بل ليستحييهم ابتغاء الإستفادة من قوة عملهم بما يخدم مشروعه الاستيطاني. وسنفصّل الكلام على سياسة الصليبيين في هذا الشأن لاحقاً. ولنبيّن الآن الإشارتين المذكورتين ومعناهما.

أما الإشارة الأولى، فهي بناء حصن (تبنين). ذلك الحصن الذي كان له شأن كبير في تاريخ مملكة (القدس) الصليبية. وهو أصل بلدة (تبنين) المعروفة في أعالي (جبل عامل). وما تزال خرائبه قائمة وسط البلدة حتى اليوم. وكان الغرض من بنائه حماية حدود الدولة الإفرنجية، وليكون نقطة سيطرة على ما والاه، فضلاً عن التضييق على (صور) والاستيلاء عليها. واستناداً إلى المورخ المعاصر ابن القلانسي في (ذيل تاريخ دمشق / 149) فإن بناء الحصن تم سنة 499/ 1105، أي بعد سقوط (القدس) بست سنوات.

والإشارة الثانية وردتنا عن مؤرخ معاصر أيضاً. وهو عز الدين ابن الأثير في (الكامل: 10/ 455). حيث يقول إنه في السنة 501/ 1107م، أي بعد سقوط (القدس) بثماني سنوات، جرت أول محاولة صليبية للاستيلاء على (صور). وأن ملك الإفرنج (أمر ببناء حصن على تل المعشوقة). وهو تل يرتفع قليلاً عن مستوى السهل، حتى اليوم. ويقول فوشيه الشارتري في (تاريخ الحملة إلى القدس/ 161) إن الملك بلدوين ملك (القدس) شاد قلعة قرب صور سنة 1117م أي 511ه (لتكبح جماح أهل صور). والأرجح أنها هي نفسها التي ذكرها ابن الأثير، وأن الاختلاف بالتاريخ حصل بتصحيف أصاب نص الشارتري. لامتناع حصول تصحيف مثله على نص ابن الأثير. لأن نص هذا منسوق حَدَثياً على السنين.

ومن المعلوم أن الحصون هي نُقاط سيطرة عسكرية ذات وظيفة هجومية ـ دفاعية. من يسيطر عليها يبسط سلطانه على ما حولها. فمن هنا نستنتج أن أعالي (جبل عامل) الشرقية باتت بحكم المحتلة على رأس القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر لميلاد، لمكان حصن (تبنين)، وأن الاحتلال أتاه من جنوبه، أي من ناحية (طبرية) كما سبق منّا القول. أما أسافله فقد بقيت منطقة تجاذب، بين المسلمين الذين كانوا في موقع دفاع مركزه مدينة (صور) الحصينة، وبين الصليبيين الذين كانوا في موقع هجوم منطلقه قلعة (تبنين). يرمي إلى الاستيلاء على المدينة.

من الآن، ولزهاء عقدين من الزمان، ستكون (صور) نقطة الصراع الإسلامي ـ الصليبي على الأرض العاملية. وهو ما سنسميه المرحلة الأولى من الاحتلال. وسنخصص له القسن التالي.

٢ المرحلة الأولى من الاحتلال

(1)

منذ بدايات دخول الصيبيين في الصورة السياسية- العسكرية للمنطقة، وحتى 23 جمادى الأولى 518/ 7تموز 1124م كانت (صور) محور الصراع الإسلامي الصليبي في البلاد العامليّة.

في سبيل فهم أحداث هذه الفترة، التي قلنا أنها تمتد على زهاء العقدين من الزمان وأنها المرحلة الأولى من الاحتلال الصليبي ل (جبل عامل)، علينا أن نرسم صورة لتوزيع القوى المشتركة في الصراع

كان الفاطميون يبسطون سلطاناً، وإن شكليّاً، على مختلف مدن الساحل الشامي من (طرابلس) حتى (عسقلان). وفي الداخل كان الأتابكة بنو بوري يحكمون وسط (الشام) وشماله، من مركز إمارتهم في (دمشق). وفي الجنوب مملكة (القدس) الصليبية. التي استقر وضعها على أن أصبحت ملكيّة، على الطراز الفرنجي الإقطاعي. تدور في فلكها مجموعة من الإمارات التابعة لها في (فلسطين) و (الجليل).

ذلك الوضع الجيو سياسي ترك الصليبيين أمام خيار وحيد لا ثاني له. هو المضي في توسعه عمقهم الاستراتيجي، بالامتداد حيثما تأتّى لهم. ابتغاء اكتساب قدرة على المناورة في وجه الحملات المتتالية، الآتية من قِبَل الفاطميين من الجنوب، ومن قِبَل البوريين من الشمال.

لكن علينا أن نلاحظ هنا أمراً يخصص الملاحظة الأخيرة. هو أن مملكة (القدس) الصليبية كانت داخلية، لا مطلّ لها على البحر. أي أنها مقطوعة الاتصال بالغرب الذي جاءت منه، ولاذي يزوّدها بحاجتها الذائمة إلى المقاتلين. وهو مصدرها الوحيد لسدّ النقص بالرجال الذين يسقطون في المعارك المتتالية. لقد كان البحر بالنسبة إليها بمثابة الشريان الذي يصلها بالقلب، ويزوّدها بالغذاء.

لذلك فإنهم ركّزوا جهودهم في السنوات الأولى على إخضاع المدن الساحلية. وخلال سنوات قليلة نجحوا في الاستيلاء عبى (يافا) ف (أرسوف) ف (قيسارسّة) ف (عكا) في (فلسطين) ثم طرابلس ف (بيروت) ف (صيدا) وفي السنة 505/ 1118م لم يبقَ في أيدي المسلمين منها سوى (عسقلان) و (صور). وسيكون علينا أ، نوجّه جهدنا إلى وصف الصراع على (صور) خصوصاً، لعلاقته الواضحة بالبحث في هذه المرحلة.

(2)

ولقد علمنا مما سلف أن (صور) كانت تابعة للفاطميين. ولقد كانت تتلقّى منهم الإمدادات، من رجال وسلاح ومؤن. لكن وصول تلك الإمدادات إلى المدينة التي غدت على حالة تشبه الحصار الداذم، كان محصوراً بطريق البحر. وهو طريق غير ميسورة دائماً. بل مرهونة االظروف من مناخيّة أو عسكرية. لذلك فإننا سنرى أن أهل (صور) كثيراً ما اتجهوا في أوقات الشدة إلى أمير (دمشق) ظهير الدين طُغتِكين بن بوري _ 497ـ 522/ 1103ـ 1128م). لأنه أقرب أمراء المسلمين منهم وأقواهم وأشجعهم.

في السنة 505/ 1118م اجتمع الفرنج من كافة النواحي على قصد (صور). فساروا إليها، على رأسهم بغدوين ملك (القدس). وكانوا قد أعدوا ثلاثة أبراج خشب عظيمة، علوّ كل منها سبعون ذراعاً، أي زهاء الثلاثين

متراً، بحيث أن مَن يعلوها يقاتل المدافعين على الأسوار مواجهة. في كل برج منها ألف رجل. ألصقوا أحدهما إلى سور البلد. وقام شيخ من أهل (طرابلس)، يبدو أنه ممن لجأ إلى (صور) بعد شقوط بلده، وضمن على نفسه إحراق الأبراج. وأخذ معه ألف رجل بالسلاح، ومع كل رجل منهم حزمة حطب. فقاتلوا الفرنج إلى أن وصلوا إلى البرج المُلصق بالسور. فألقوا الحطب من جهاته وأطلقوا فيه النار فاحترق بمن فيه. ثم رمى البرجين الآخرين بسلال مشتعلة قد أعدّها، مملوءة بالحطب الذي سقاه بالنفط والزفت والكتّان والكبريت، فأحرقهما.

ثم إن أهل البلد وحاكمها من قِبَل الفاطميين راسلوا طُغتِكين يستنجدونه ويطلبونه ليُسلّموا إليه البلد. فسيّر إليهم نجدة من الفرسان، شقّوا طريقهم إلى داخل المدينة، وشاركوا أهلها في أعمال الدفاع. في حين كان هو يُغير على أملاك الفرنج في النواحي القريبة، ويقطع طرق إمدادهم. كما أغار على نواحي (صيدا) يقتل ويحرق ويدمّر. وهو مع ذلك يواصل أهل (صور) بالكتب والرسائل التي تحثّهم على الصبر والثبات. فاستماتوا في القتال. إلى أن يأس الفرنج وساروا عنها بعد خمسة أشهر من الحصار.

(3)

تلك هي قصة الحصار الصليبي الأول ل (صور) كما رواها مُفصّلة المؤرخ ابن الأثير فس (الكامل/ حوادث سنة 505). لكن المؤرخ المعاصر حمزة ابن القلانسي (ت: 555/ 1160م) يورد في (ذيل تاريخ دمشق/ 178) إضافة هامة على رواية ابن الأثير، تقول: (وأتت أهل صور رجّالة كثيرة من صور وجبل عامة رغبوا في ذلك- يعني في الدفاع عن المدينة- مع رجّالة دمشق وصلوا إليهم وحصلوا عنهم). ومت ندري علّة تجاهل ابن الأثير لدور أهل (جبل عامل) في الدفاع عن حضارتهم، مع أنه أورد

تفصيلات دقيقة أقل أهمية بكثير . منها ما دار بين الشخصين أو الأكثر قليلاً. مما أعرضنا عن ذكره فيما اقتبسناه عنه. الأمر الذي يحرّك ريبة الناقد في مقاصد هذا المؤرخ، وأنه لم يكن على ما ينبغي أن يكون عليه المؤرخ الحر، من حيث الحياد والبراءة. وليحتفظ القارئ بهذه الملاحظة في ذهنه، لعلاقتها ببعض ما يأتي من مقاصد الكتاب.

(4)

كان من حميد أثر النجدة والمعاضدة الشجاعة والنبيلة من طغتِكين لأهل (صور) في محنتهم، أنهم منحوه ثقتهم. بحيث أنهم في السنة التالية (506/ 1119م) أجمعوا أمرهم، ومعهم نائب الفاطميين فيها، على تسليم المدينة إليه، خوفاً من عودة الفرنج إلى حصارها، وفي هذا السبيل ندبوا رسولاً منهم إلى (دمشق) لعرض ما اتفقت عليه كلمتهم. وبالفعل عاد الرسول من سفارته ومعه تاج الملوك بوري بن طغتِكين والأمير مسعود واليه على (بانياس)، ومعها مَن يُعتمد عليه من العساكر. ثم تبعتهم فرقة أكبر. دخلوا جميعاً إلى المدينة واستقروا فيها. زحمل الأميران معهما أموالاً ومؤناً برسم أهلها، فطابت نفوسهم. وكان من نُبل طُغتِكين أنه، وهو الذي أصبح الحاكم الفعلي للمدينة برضى أهلها، أن أمر بإجراء الدعوة والسكّة للخليفة الفاطمي، وأن لا يُغيّر منها شيء عمّا كانت عليه من قبل. (ذيل تاريخ دمشق/ 182). وخاطب أهل (صور) قائلاً: (أنا ما فعلت ما فعلت إلا لله تعالى. وإن دهمكم عدو جئتكم بنسي ورجالي) (مرآة الزمان/ حوادث السنة 506). وكتب إلى الأفضل ابن أمير الجيوش، وزير الخليفة الفاطمي، والرجل القوي في (القاهرة)، يقول: إن بغدوين قد جمع وحشد للنزول على صور. وإن أهلها استنجدوا بي عليه، والتمسوا مني دفعه عنهم. فبادرت بإنهاض من أثق بشهامته لحمايتها والمرماة عنها، وحصلوا فيها. ومتى وصل إليها من مصر من يتولى أمرها ويذبّ عنها ويحميها، وبادرت بتسليمها إليه، وخروج نوابي

منها، وأنا أرجو أن لا يُهمل أمرها، وإنقاذ الأسطول بالغلّة إليها والتقوية لها) (ذيل تاريخ دمشق/ 182). وجاءه الجواب من الوزير يستحسن ما فعل ويستصوب رأيه ويحمد غيرته. وكان مما قال: (هذا أمر وقع منّا أجمل موقع وأحسن موضع). وأمر بتجهيز الأسطول إليها بالغلّة والأقوات لتُباع من أهل المدينة بأسعار مناسبة، وبالأموال لتُنفق في العسكر والأجناد. ووصل الأسطورة بذلك كله إلى (صور) فرخصت الأسعار وحسُن حالها. وزال طمع الإفرنج بها (نفسه/188).

كانت تلك النتيجة الممتازة ثمرة لحُسن تدبير أهل (صور) إذا لجأوا إلى طُغتِكين في محنتهم، وإلى استماتتهم في الذّود عنها. وإلى نبل طُغتِكين وشجاعته، حيث نظر إلى المصلحة العليا للمسلمين دون سواها، وبذل في سبيلها أقصى ما عنده. ثم إلى تفهّم الوزير الأفضل لمراميه. والحقيقة أن هذا التنسيق العفوي، الذي جاء من إملاء الضرورة ودون تفاهم مُسبق، كتان ظاهرة استثنائية جداً في علاقات حكّام وأمراء المسلمين في تلك الفترة العصيبة هو الذي أتاح ل (لصور) أن تصمد إحدى عشرة سنة أخرى.

(5)

ولقد كانت الصيغة التي حُكمت (صور) بموجبها خلال تلك المدة ملتبسة جداً: الحكم فيها للفاطميين نظرياً، ولكنه لأمير (دمشق) عملياً. ومع ذلك فإن استمرارها زهاء العشر سنوات إمارة صادقة على نجاحها، بالرغم من كل المقاييس فضلاً عن أنها نجحت في حمايتها من أطماع الصليبيين. الذين ظلّوا متربصين، ينتظرون الفرصة الملائمة لمعاودة حصارها.

ولقد جاء انهيار تلك الصيغة في السنة 516/1122م إمارة أولى على انهيار أمر المدينة وسقوطها بيد الصليبيين. ففي تلك السنة وصلت إليها عمارة بحرية فاطمية كبيرة. حمل قائدها تعليمات سرية بالقبض على الأمير مسعود.

نائب طُغتِكين فيها. الذي ما إن صعد إلى مركب قائد العمارة للسلام عليع، حتى اعتقله واستولى على البلد. واعتذرت السلطة الفاطمية عن هذا التدبير بأن الأمير بدأ يسيء السيرة في الرعية. وأن شكاوى أهلها تتابعت إلى الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله (49- 525/ 1101- 1130م) وهو الذي عرفنا قبل قليل دوره الأساسي في تثبيت السلطة فيها وفقاً لما فعله طُغتِكين. والجدير بالذكر أن المؤرخ القلانسي، الذي نقلنا عنه هذا الخير، يختم كلامه هنال بالقول: (وكانت عاقبة خروجه منها – يعني الأمير سعود- وسوء التدبير فيها، خروجها إلى الإفرنج وحصولها في ملكهم) (أيضاً /207).

(6)

لكن الحقيقة أن سقوط (صور) جاء ثمرة لتحالف قوي جداً بين وليم دي بورز، الوصي على مملكة (القدس) في غياب ملكها بلدورين الثاني، الذي وقع في أسر المسلمين بتاريخ 20 صفر 18/517نيسان 1123م، وبين البنادقة، نسبة إلى مدينة (البندقية). وكان هؤلاء قد جاءوا إلى المنطقة بأسطول بحري كبير، يعد ثلاثمائة سفينة، تحمل خمسة عشر ألف مقاتل. تحّركهم شهوة المشاركة في المكاسب والتجارة في الشرق.

كان أول ما فعله البنادقة توجيه جزء من أسطولهم إلى (عسقلان) حيث نجحوا في تدمير الأسطول الفاطمي المُرابط في مينائها. وبعد ذلك بدأوا الغارات على الشواطئ الجنوبية ل (فلسطين) و (سيناء) حتى (العريش) باب (مصر) وبذلك ضمنوا لقوتهم البحرية سيطرة كاملة على البحر دون منازع.

بعد مفاوضات طويلة بين طرفي التحالف، ضمن البنادقة بنتيجتها لأنفسهم ثمناً عسكرياً للمساعدة العسكرية التي سيقدمونها للصليبيين، شرعت

جميع القوى الصليبية في حصار (صور) براً وبحراً. وسارع طُغتِكين إلى إمدادها بعسكر. وسيّر إليها ميرة ومالاً فرّقه فيهم. وخرج بنفسه على رأس جيشه إلى (بانياس). محاولاً الضغط على الصيبيين، بمهاجمة مختلف مراكزهم، وقطع طرق إمدادهم، كما فعل في النوبة السابقة، قبل ثلاث عشرة سنة كما خرجت قوة من (عسقلان) وحاولت الزحف باتجاه (القدس) عسى أن تُخفف الضغط على (صور)، بعد إغلاق كافة الأبواب التي يمكن تنفذ منها القوى الإسلامية إلى نجدتها، أو إلى الضغط على القوى الماجمة.

كانت (صور) مدينة في الغاية من الحصانة، حصانة طبيعيّة من أ،ها شبه جزيرة لا يصلها البر إلا ممر ضيق. أُضيفت إليها حصانة مما توالت على صنعه أيدي الناس، بما شادوه من أسوار عالية متينة. لكن القوى التي اجتمعت عليها كانت عظيمة. (وتمادت الأيام. وأشرف أهلها على الهلاك.... فقلّت الأقوات. وسئم أهلها القتال، وضعفت نفوسهم) (إبن الأثير/ حوادث السنة 518ه). وأخيراً لم يجد طُغتِكين بداً من العمل على إنقاذ ما يمكن إنقاذه. وخشي أن تسقط حرباً ويُباد أهلها. كما فعل الصليبيون غير مرة. فراسلهم وتقرر الأمر على أن تُسلم إليهم. على أن يُمكنوا مَن بها من الجند والرعية من الخروج منها بما يقدرون عليه من أموالهم ورجالهم زغيرها. (فاستقرّت القاعدة على ذلك. وفُتحت أبواب البلد. وملكه الإفرنج. وفارقه أهله، وتفرقوا في البلاد وحملوا ما أطاقوا وتركوا ما عجزوا عنه. ولم يعرض الإفرنج لأحد منهم) (المصدر نفسه). وقد ترك لنا أبو المحاسن وصفاً حيّاً للمشهد حيث قال: جائ الأتابك- يعني طُغتِكين- بعسكره، فوقف بإزاء الإفرنج. ووقفوا بإزائه. وصاروا صفين وخرج أهل البلد يمرون بين الصفين. ولم يعرض لهم أحد) (النجوم الزاهرة:183/5).

هكذا سقطت (صور) بعد صمود مجيد. وكان سقوطها وهناً عظيماً

على الملسمين، أُضيف إلى ما كانوا عليه من وهن. وبالنسبة لمنظورنا في هذا البح، فإنه بسقوطها غدا (جبل عامل) كله تحت الاحتلال، كما سلف منا القول. وبذلك يخرج بحثنا من مرحلة ليدخل مرحلة جديدة . لكننا لن نغادر هذه المرحلة دون أن ننوه بالرجل الكبير الذي ظل حامي (صور) وضمناً حامي ما بقي حراً من (جبل عامل) طيلة أربعة عشر عاماً. وكان السند الخارجي الوحيد لها وله، حين كانوا معلقين بين الحرية والاحتلال. أعني الأتابك طُغتِكين بن بوري. هو ذا أوان التنويه بهذا الرجل النبيل، وبالسياسة الحكيمة والشجاعة التي سار عليها طيلة مدة حكمه لإمارة (دمشق) (397- 522/1103/1128م). وهيسياسة منحت الأولوية المطلقة لجهاد الأعداء. ناظراً إلى المصلحة العليا. ولم يسمح للاختلاف المذهبي أن يُفرق الصف، الذي ينبغي أن يكون على أفضل حال من التراص في تلك الأيام الشداد (الذهبي: سير أعلام النبلاء:19/518- 20). وكان على وفاق تام مع أهل (جبل عامل) الذين محضوه ثقتهم. فكأنه طتئر يغرّد في غير سربه. وربما لذلك حُرم من أن يحتل الموقع الذي يستحقه في التاريخ، إلى جنب أبطال هاتيك الأيام، على مختلف درجاتهم من حيث البطولة.

٣ ـ المرحلة الثانية

(1)

تمتد المرحلة الثاية من مراحل الاحتلال الصليبي ل (جبل عامل) على خمس وستني سنة. وفيها كان الاحتلال شبه تام جغرافياً، ومستقر سياسياً. وقد اتخذنا في منح صفة المرحلة مقياساً سقوط (صور) سنة 518/ 1124م، حتى ظهور تباشير نجاح الهجوم المضاد، الذي شنّه المسلمون على المحتلّين فيه، وتزلزل الاحتلال بتحرير حصنين أساسيين من الحصون التي شادها الصليبيون، هما حصنا (تبنين) و (أرنون)، في السنة 583/1187م، على يد صلاح الدين. وكانت تلك الفترة سكونيّة تماماً، بالنسبة للمؤرخ الذي يتتبّع الأحداث ذات الأثر. إلى درجة أنك لا تجد خلالها أي ذكر ل (جبل عامل)، في الكتب التي نرجع إليها في التأريخ للحركة الصليبية، من أمهات وأبحاث. ولذلك فإننا سنحوّل الحديث عنها إلى وصف حياة الناس في الجبل تحت الاحتلال. وربما كان من الغني عن البيان، أن بعض ما سنقوله في هذا، على الأقل ينسحب على ما هو أوسع من تلك الفترة، إلى الفترة الأولى التي تجاوزنا الحديث فيها، وإلى الفترة الثالثة التي سنفرغ لها بعد قليل. ذلك لأن المحتلّين لم يبدّلوا من سياستهم، فيما يبدو، تجاه السكّان طيلة فترة الاحتلال بكافة مراحله. بل ساروا على نهج واحد. مما سنبيّنه ونبيّن أسبابه في الفقرة التالية.

(2)

كانت الحركة الصليبية حركة استيطان. ولم تكن أبداً حركة غزو. نظر قادتها والمحرّضون عليها والمساعدون فيها، من أمراء ورجال كنسية وتجّار، إلى ما يمكن أن تعود عليهم من مصالح سياسية ومادية دائمة. أما عديد جيشها، فقد كان من اللصوص والمجرمين، وكل مَن يبغي التخلص من حياته البائسة، والبحث عن فرصة جديدة لحياة دنيوية أكثر سعادة. إلى جانب المتدينين (شعب الله) حسب فوشيره الشارتري في كتابه (تاريخ الحملة إلى القدس / 81)، الذين امتلأت نفوسهم بالأضاليل التي أشاعها المحرّضون. والتي صوّرت لهم الحرب ضد المسلمين أقرب طريق إلى سعادة الأخروية. وقد كان كل أولئك حاضرين في ذهن الذين أشعلوا الحرب. نطق به كبيرهم، البابا أوربان الثاني (481- 492/ 1088- 1099م)، في مجمع (كليرمونت) حيث قال، من كلمات كان لها وقع الطلقة الأولى في حرب طالت مائتي سنة: (دع أولئك الذين اعتادوا على حروبهم الخاصة بطيش على المؤمنين، يزحفون على الكفّار، بحرب تبدأ ولا تنتهي إلا بالنصر. وليصبح أولئك الذين طال كونهم لصوصاً جنوداً للمسيح (تاريخ الحملة إلى القدس/36).

نخلص من هذا العرض إلى القول: إن مصالح ونوازع كل الذين ساهموا في الحرب، تحريضاً وعديداً وعُدة، التقت عند مطلب رئيس، هو انتزاع الأرض من أصحابها بقصد التوطّن فيها. أي ما نسميه اليوم بالاستعمار الاستيطاني. بقتلهم أو بأسرهم وبيعهم عبيداً، وهذا يُفسّر لنا القسوة المهولة التي عومل بها المدنيّون في بداية العمليات العسكرية خصوصاً. إما بقصد

إفنائهم أو إرغامهم على الهرب، تاركين كل شيء طُعمة للغزاة. خصوصاً حين سقوط المراكز السكنية الكبرى. حيث كانوا يعمدون إلى تنظيم مذابح مهولة، يُقتل فيها عشرات الألوف دون تمييز. كما حدث في (القدس) (تاريخ الحملة إلى القدس/ 75) وفي (معرة النعمان) (تاريخ الجملة إلى القدس/ 68).

لكن سرعان ما دار الزمان دورته، وغدا الغرباء أصحاب الأرض، لا غنى لها ولهم عمّن يعمرها ويستنبط خيراتها. خصوصاً وأن اكثر مَن شارك في الحملة إلى غايتها، وأصبحت (القدس) ملكاً للمسيحيين. والقلّة التي بقيت كان عليها أن تتفرّغ لحماية الممتلكات الواسعة التي كسبتها في الصّدمة الأولى. فضلاً عن أنها كانت في حالة تناقص مستمر، بسبب القتلى الذين يسقطون في الغزوات والغزوات المضادة المستمرة بينهم وبين المسلمين.

من هنا يلاحظ الباحث المتتبّع تبدّلاً جذرياً في سياسة الصليبيين نحو السكان الأصليين. قوامها استحياؤهم وتركهم يعملون في الأرض، وفقاً لصيغة سنقول ما نعرفه عنها على التوّ.

(3)

نحن نعرف على وجه الإجمال أن الصليبيين المحتلّين نقلوا إلى ممتلكاتهم الجديدة في الشرق، بعد استقرارهم فيه، الصّيغ الاجتماعية والسياسية المألوفة لديهم والمعمول بها في بلادهم. خصوصاً في (فرنسة) موطن أغلبهم. وفي رأس ذلك نظام القنانة، الذي كان أبرز ما في النظام الاجتماعي في (أوروبا) الغربيّة. هكذا فإن الأسياد الجدد للأراضي المملوكة بالفتح جعلو الفلاحين الذين كانوا يعيشون في القرى والمزارع أقناناً، يملكهم عمليّا مالك الأرض. (طرخان: النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط/ 58 وزاخاروف: الصليبيون في الشرق/ 132ـ 33) وينقل عاشور

في الحركة الصليبية / 495) عن مصدر غربي، أن قوانين مملكة (القدس) الصليبية نصّت على أن (العبيد والفلاحين والأسرى كالمواشي يخضعون لقانون البيع والشراء. وأن للسيّد أن يفعل ما يشاء بعبيده).

وما من سبب يدعونا للقول بأن الأوضاع التي عاش فيها أهل (جبل عامل) تحت الاحتلال كانت مختلفة في هذا، بأي معنى من معاني الاختلاف.

هوذا ما نعرفه عن سياسة الصيبيين عموماً نحو المدنيين المسلمين، وكيف ولماذا تحوّلت من حال إلى حال. وهاهنا تفصيل يتعلّق بأهل (جبل عامل) خصوصاً،

(4)

النص الوحيد الذي وصل إلينا. بوصف حياة أهل (جبل عامل) تحت الاحتلال، نجده عند ابن جبير محمد بن أحمد الكناني (539- 614ه/ 1144- 1217/) في رحلته الشهيرة، وهو كان قد اجتازه من (هونين) باتجاه الساحل عند (عكّا) ما بين نهار السبت 7جمادى الآخرة 579ه/15 أيلول 1183م ونهارالإثنين التالي. أي في يومين وبعض يوم. وذلك بعد سقوط (صور) واستقرار الاحتلال الصليبي فيه بإدحدى وستين سنة قمرية. ومع ذلك فإن ما سجّله ثمين جداً من حيث فرادته. وها نحن نثبت موضع الحاجة منه.

قال:

. . . . (فرحلنا عنها- أي عن بانياس- عشيّ يوم السبت المذكور إلى قرية تُعرف بالمسيّة، بمقربة من حصن الإفرنج المذكور - يعني حصن هونين- فكان مبيتنا بها. ثم رحلنا يوم الأحد سَحَراً. واجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين بوادٍ ملتف لاشجر، وأكثر شجره الرّنْد. بعيد العمق، كأنه الخندق السحيق المهوى. تلتقي حافتاه. ويتعلّق بالسماء أعلاه. يُعرف بالأسطبل. لو ولجته العساكر لغابت فيه. لا منجى ولا مجال لسالكه من يد الطالب فيه.

المهبط والطلع إليه عقبتان كؤدتا . فعجبنا من أمر ذلك المكان. فأجزناه ومشينا عنه يسيراً. وانتهينا إلى كل حصن كبير من حصون الإفرنج يُعرف بتبنين. وهو موضع تمكيس القوافل. وصاحبته خنزيرة تُعرف بالملكة، وهي أمّ الملك الخنزير صاحب عكّة، دمرها الله. فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن. ومُكّس الناس تمكيساً غير مُستوفى. والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية).

(ورحلنا من تبنين، دمرها الله، سَحَر يوم الاثنين. وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة. سكّانها كلهم مسلمون. وهم مع الإفرنج على حال ترفيه. نعوذ بالله من الفتنة. وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلّة عند أوان ضمّها. وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط. ولا يعترضون في غير ذلك. ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً. ومساكنهم بأيديهم. وجميع أحوالهم متروكة لهم. وكل ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل: رساتيقهم كلها للمسلمين، وهي القُرى والضياع. وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يُبصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين، أن يشتكي الصّنف الإسلامي جور أخيه، ويحمد سيرة ضده المالك له من الإفرنج ويأنس بعدله) (الرحلة/ 274- 75).

(5)

يؤخذ من كلام ابن جبير أنه اجتاز الجبل من طرفه الجنوبي الشرقي، من (هونين) باتجاه (عكّا) غرباً. (في قافلة كبيرة من التجّار المسافرين بالسِّلع) (نفسه/ 271). والطريق الذي سلكه كان الطريق الموصل بين الداخل والميناء الرئيس على الساحل يومذاك. وقد قال عن (عكّا) إنها (قاعدة الإفرنج بالشام، ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام) (أيضاً/ 276). وكان ذلك الطريق جزءاً كم شبكة الطرق الداخليّة الكثيفة، التي كانت تربط بين

(جبل عامل) و (فلسطين). وظلت عامرة بالسالكين بالاتجاهين حتى الأمس القريب. قبل أن تندثر وتعفو بالتبدلات السياسية الناشئة من الاحتلال اليهودي ل (فلسطين). إذن فهو لم يعرف قلب (جبل عامل). وهذا نقص آخر يُضاف إلى المدة القصيرة التي قضاها فيما عرفه منه، وهو يجتازه مسرعاً.

ولقد كانت قلعة (تبنين) التي قضى ابن جبير أسفلها ليلة الإثنين التاسع من جُمادى الآخرة سنة 579ه/ السابع من أيلول 1183م، مركز الأمير الصليبي الحاكم لها وللمنطقة الموالية لها. كما كانت مركز استيفاء ضريبة المرور على البضائع والأشخاص العابرين (تمكيس). لكن ثغرهم كان حصن (هونين) بالنسبة للقادم من (دمشق) عن طريق (الجولان). تقابله غير بعيد (بانياس)، التي وصفها بأنها (ثغر بلاد المسلمين) (أيضاً/273). وكان حاكم (تبنين) يأتي في الدرجة الثالثة بعد الملك، ملك (بيت المقدس)، الذي يجبئ على رأس الهرم الإقطاعي. وتتألف أملاكه من ثلاثة مدن رئيسة، هي (بيت المقدس) و (عكا) و (نابلس). يليه أربعة من كبار الأمراء، أشبه بالدوقات في الغرب الأوروبي، هم أمراء (يافا) و (الجليل) و (صيدا) و (الأردن). بعدهم تأتي مجموعة من الأمراء، الذين يحكمون بقية مدن المملكة وحصونها، وعدتهم إثنا عشر أميراً، من أهمهم أمير (تبنين). وهاإن ابن جبير يقول، إن القلعة يومذاك كانت بحكم والدة أمير (عكا). ولم يذكر ذلك أحد سواه من المؤرخين المسلمين في حدود ما بحثنا.

لكن أهم ما أتانا به ابن جبير كان قوله، إنه مذ رحل عن (تبنين) كان طريقه كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة. سكانها كلهم مسلمون وهو نص لا ينقصه الوضوح عل مبلغ العمران الذي بلغه ذلك الجزء من (جبل عامل) على الأقل وهو تحت الاحتلال.

ومعلومٌ أن (جبل عامل) قد تكون بشرياً بالنزوح الكبير إليه من (طبرية) وما والاها من قرى ومزارع كثيرة، مما كان يطيف ببحيرتها العذبة

الواسعة. فضلاً عن أهل مدينة (صور)، الذين خرجوا منها ذلك الخروج الدرامي الذي وصفناه فيما فات. وهؤلاء جميعاً كانوا من الشيعة. وفقاً لما قدمناه من أدلّة في الفصل المخصص ل (جبل عامل)، من كتابنا (التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية).

هذا يعني أن (جبل عامل) قد طفر من حالة شبه الخواء التي كان عليها وفقاً لنصوص سابقة على ابن جبير اقتبسناها وحللناها هناك أيضاً، إلى حالة الامتلاء أو شبه الامتلاء السكاني، وهو تحت الاحتلال. وفي زمن قياسي. يناهز الثمانين عاماً. بل أقل من ذلك بالتأكيد، لأن ما وصفه ابن جبير من حالة عمرانية متقدمة لم يكن ابن يومه بالتأكيد، ولم يُهيّأ لكي يأتي الرحّالة فيراه ويصفه. بل كان أمراً ثابتاً راسخاً. اقتضى عمل أجيال من الناس.

ثم أننا رأينا الرحّالة يصف نمط العلاقات التي كانت قائمة بين السكان وسلطات الحتلال، خصوصاً فيما يخص علاقات الانتاج. وليس هذا الذي قاله بالأمر الجديد علينا، فنحن نعرف عن سياسة الصليبيين نحو المدنيين المسلمين ما يكفي، وقد ألمحنا آنفاً إلى شيء من ذلك.

مهما يكن، فإن من الواضح أن ما وصفه قد أخذ شكله من أن تلك السلطات كانت إقطاعية- محتلة. يقاسمون المزارعين انتاجهم، بنصف الغلّة حين أوان ضمها، وبضريبة معلومة على الأشجار المثمرة. وهذا إجراء إقطاعي نموذجي بالإضافة إلى جزية على الرأس. وهذا من سلطة الاحتلال إجراء عسكري- سلطوي.

ومع ذلك، فالظاهر أن ما كان يبقى في المزارعين كان يقوم بأودّهم. بل ويكفي لمتابعة الحالة التنموية. التي نجح ابن جبير في وصفها بأوجز عبارة. ضرورة أنه في التنمية لا يكفي إنتاج حالة متقدمة بمعنى من المعاني. بل لا بد من رفدها ومتابعتها وبل العناية المناسبة بها، وإلا انهارت وضاع كل الجهد المبذول في إنتاجها هباءً. وعلى كل حال، فإن ما وصفه من

مقاسمة وضريبة عينيّة ونقديّة له موضوعه ولا ريب. إذ لا مقاسمة دون ما يجري التقاسم عليه. وقد لخّص انطباعه بعبارته البالغة الإيحاء، التي ختم بها مطالعتها المقتضبة عن (جبل عامل) وأهله: (لأنهم - ي أهل الجبل- على ضد أحوالهم- يعني أحوال أهل رساتيق المسلمين- من التنرفيه والرّفق).

لكن علينا أن لا ننسى أن الرجل خرج بانطباعه هذا من ملاحظة عابرة، عن بلد لم يكن يعرف عنه لا قليلاً ولا كثيراً. وهو الرحالة الذي طرقه آتياً من وراء البحر. مما يمنحنا الحق بأن نقول، إن ذلك الوصف المعبّر عن الرفاه والطمأنينة كان وصفاً سطحياً ساذجاً. نظر إلى ظاهر الأمور، التي تبدو لمجتاز عابر سبيل، يطرق بلداص لم يعرفها من قبل. ولم يُتح له أن يختلط بالناس ويكشف خبيئهم، الكامن تحت ما رآه من مظهر خادع. وهو الذي عرفنا أنه اجتاز الجبل في يومين وبعض يوم. وإذان، فما حقيقة ما عبّر عنه بقوله: (وهم مع الإفرنج على حال ترفيه)، وعقبة بالاستعاذة بالله من الفتنة، إلا الخضوع والاستكانة من لا يجد لغيرهما سبباً ووسيلة.

والحقيقة أنه ما كان هناك طمأنينة ولا مطمئنّون، ولا ترفيه ولا مرفّهون، والظاهر أن ذهن ابن جبير كان مشغولاً بمقارنة سطحيّة بين حياة المزارعين تحت الاحتلال، وبين ما كان قد رآه من عيشة ضنكة وظلم تحت حكم الإقطاعيين المسلمين. وهو بالتأكيد قد خفيت عليه مظاهر الاحتلال، باستثناء ما شهده في حصن (تبنين). لأن المحتلّين كانوا أقليّة ضئيلة بالقياس إلى عديد السكان. وكانت القرى والمزارع غير ذات أسوار، بحيث تضمن أمنهم. ولذلك فإنهم قبعوا في الحصون والقلاع التي شادوها في مختلف أنحاء العالم (جبل عامل). ومن هناك نشروا سيطرتهم الكاملة عليه. في ظل العجز المحلي، وحالة الإحباط الإسلامي المزمنة.

نعتقد أن الفضل الأكبر في تلك الطفرة التنموية يرجع إلى الظرف الذي تكوّن فيه (جبل عامل) بشرياً. وقد ألمحنا إليه قبل قليل. أنه لا شك أن

تلك الألوف المؤلفة من الناس، التي اضطرت اضطراراً إلى النزوح فجأة عن مواطنها، خصوصاً عن حياتها الرغيدة في (وادي الأردن) الخيصيب، قد واجهت تحدياً كبيراً في مصيرها. إذ وجدت نفسها على هضاب (حبل عامل) الفقيرة الشحيحة. في شرو\، من حيث تحصيل أسباب العيش، أدنى بكثير من تلك التي خبرتها في مرابعها المألوفة. حيث المياه الغزيرة، والطقس الدافئ، والأرض الخصيبة. ثم لا شك أنها كانت في وضعها الجديد أمام خيار وحيد. هو الاندلاع الكامل إلى العمل الدائب، في سبيل إنجاز بنية إنتاجية ومعاشية ملائمة. من بناء مساكن، واستصلاح أرضين، واجتراح تقنيّات جديدة لاستنباط الأرض تتناسب مع الشروط المحلية، وما إلى ذلك. وذلك ظرف يُنجز فيه الإنسان عادة ما لا يُنجزه في وضع الراحة والشروط المهيّأة. وهذا التحليل يساعد المُتأمل اليوم على تصوّر وفهم الظرف الموضوعي والنفسي، الذي جعل أولئك الناس يبنون في الزمن القصير نسبيّاً ما وصفه ابن جبير بأوجز بيان، في عبارته التي اقتبسناها آنفاً: (وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة).

(6)

علينا الآن أن نسجّل ملاحظة هامة. هي أن (جبل عامل) من بين كل ما بسط عليه الصليبيون سلطتهم هو البقعة الوحيدة التي كانت من قبل الاحتلال شبه خالية، وتزامن احتلالها مع عمرانها. وكل ما عداها كان مناطق وبلداناً عامرة. إذن، فنحن هنا أمام ظاهرة فريدة في تاريخ الاحتلال الصليبي لسنا نعرف لها ثانية. ولا بد أن يكون لها أثرها الخاص في هذا الجانب أو ذاك من حياة الناس. لكننا، من أسف، لا نملك المعلومات الكافية التي تؤهلنا للخوض في هذا الموضوع بكافة جوانبه. ولو تهيّأت لنا الأسباب لربما أتت دراسة مقارنة طريفة.

لكن بقي أمام الباحث من آثار ذلك الطور من تاريخ (جبل عامل) وخصوصاً من آثار تزامن امتلائه سكانياً مع سيادة الأجنبي وما لا بد أن يكون قد صاحب ذلك تمصير قرى وبلدات، - أنك تجد فيه حتى اليوم أسماء قرى ما تزال تحمل جرساً فرنسيّاً واضحاً ومن المعلوم أن اللغة الفرنسية، بمختلف لهجاتها المحكية، كانت اللغة الرئيسة بين الصليبيين (الحركة الصليبيةم 495). هذا مع ضرورة الأخذ بالحُسبان التحريف الذي لا بد أنه نال الكلمات، فأبعدها بنسب متفاوتة عن أصلها.

ومن ذلك (باريش) على اسم المدينة التي غدت العاصمة الفرنسية PARIS و(فرون) FRONT(ودوبيه) Doubais، و (شعلبون) CHALON وهو اسم عائلة من الأشراف الفرنسيين شاركت في الحرب الصيبية (راجع المادة في Encyclopedie Larousse) و (يارن) Yaronو (الحلوسية) Alesse،و (أرنون) Arrnon اسم قلعة مما بناه الصليبيون معروفة أيضاً ب (بوفور) BeauForte = الحصن الجميل. ويقول أبو الفداء في (تقويم البلدان/ 56) أن (أرنون) اسم رجل. و(تيرون) Tyron، وهو اسم قلعة صليبية أيضاً، و (طلوسة) التي يبدو أن الصليبيين الفرنسيين شادوها على أرض كانت تُعرف من قبل باسم(النّحارير)، وسمّوها Toulouseعلى اسم المدينة الفرنسية المعروفة، تعبيراً عن الحنين للوطن، شأن غيرهم ممن بدلوا أوطانهم. ومع الزمن حثرّف الاسم الأصلي ليتناسب مع طريقة النطق بالعربية. ويذكر السيد محسن الأمين في (خطط جبل عامل/ 295) أن في مسقط رأسه (شقراء) مدافن تحمل شارات صليبية. ولعلهم هم الذين مصروها. ويقول ابن فضل الله العمري في (مسالك الأبصار/ 151) إن (تبنين) و (هونين) هما (حصنان منيعان بناهما الإفرنج)، ومن المرجّح بالتالي أنهم هم الذين سمّوهما. وعلى هذا فإن اسم البلدتين اللتين قامتا فيما بعد حول كل من الحصنين، لإيواء المزارعين، فرنسي أيضاً. وتحسُّس جرس الكلمتين

يؤيد ذلك. ولنلاحظ أن ابن جبير قال إن مبيته كان أسفل الحصن، مما يوحي أن البلدة لم تكن قامت بعد.

والجدير بالذكر أن هذه الظاهرة ليست منحصرة بقرى (جبل عامل) ففي جوار مدينة (اللاذقية) قريتان تحملان اسماً صليبياً واضحاً. إحداهما (الشبطلية) وما هذا الاسم الغريب إلا تحريف لاسم منظمة الرهبان المقاتلين Hospitallers وذلك أمر معروف عند أهلها اليوم. والثانية (سنجوان) الذي يبدو أنه يرجع إلى الاسم الآخر والأقل شهرة للمنظمة نفسها (أخويّة القدس يوحنا) ordre de saint jean، التي كُرّست عند تأسيسها للقدّيس يوحنا، ثم تحولت أيان الحروب الصليبية إلى مؤسسة فرسان عسكرية. لكننا نلاحظ أن الظتهرة أوسع انتشاراً في (جبل عامل). وما ذلك إلا لما ذكرناه من تزامن عمرانه مع احتلاله.

ومن تمام الحديث عما جد على (جبل عامل) من عمران تحت الحكم الصليبي أن نقول، إن المحتلين بنوا طريقاً معبدة من (صور) ف (دردغيّا) ف (صريفا) وصولاً إلى (بانياس). ما تزال أثارها واضحة قرب (دردغيّا).

(7)

ما دمنا قد أخذنا بالحديث على ما هو من شؤون العمران في (جبل عامل) في تلك الفترة، فإن من المفيدأن نُلم بما شاده المحتلون أو رمموه من عمائر عسكرية إبان فترة الاحتلال. لما لذلك من علاقة بأعمالهم وسياستهم فضلاً عن أنه يُلقي ضوءاً على نمط العلاقة التي قامت بينهم وبين السكان.

وأول ما يلاحظه المتتبّع في هذا الشأن، كثافة القلاع والحصون بالقياس إلى رقعة الجبل. وما ذاك، فيما نحسب، إلا لسببين:

- **الأول:** إن حدود (جبل عامل) الشرقية هي خط تماس مع إمارة (دمشق). مما اقتضى إقامة تحصينات متينة. لحماية حدود مملكة (القدس) الصليبية في أضعف نقطة. بل الجهة الوحيدة المفتوحة على المدى الإستراتيجي الإسلامي الأسيوي، وقد أثبت تطور الأحوال فيما بعد، أعني عند تحريره الأول على يد صلاح الدين، أ، هذه الجهة هي بالفعل الباب المشرع عسكرياً للولوج إلى قلب الجبل.
- **الثاني:** إن ضرورات السيطرة على الأغلبية المسلمة اقتضت إشادة أو ترميم عدد من الحصون، لإقامة المحلين. على رأسها قلعة (تبنين) الحصينة، التي كانت مقر لإقامة الأمير الحاكم، ومَن لا بد أن يكون تحت يده من قوة عسكرية. ثم عدد من الحصون الأصغر حجماً والأضعف تحصيناً وتسليحاً. موزّعة في مختلف أنحاء الجبل. شيدت لتكون بمثابة مخافر مُحصنة ومراكز إدارية. يبدو أنها كانت مخصصة لإقامة المولجين ببسط سلطة المدني / الإقطاعي من عمل الاحتلال. أعني مُقاسمة السكان على ما ينتجون من غلال، وجباية الضرائب المادية والعينية المفروضة عليهم.

والظاهر أن هذه الحصون الداخلية ما شيدت إلا لتكون بديلاً عن المدن ذات الأسوار. التي ليس من الصعب على القارئ الحصيف أن يُخمن سبب غيابها في الجبل. وهو الذي نما سكانياً، وتأسست فيه المراكز السكنية، من بلدان وقرى ومزارع، على وجه السرعة، وفي حدود الضروري والممكن لتسد الحد الأدنى من حاجة أولئك المساكين الذين اضطرتهم ظروف الحرب إلى النزوح عن أماكن سكنهم الأصلية في (وادي الأردن) و (صور) وغيرهما. واللجوء إلى (جبل عامل). والحقيقة أن هذه الفذلكة تقود القارئ إلى تصوّر نمط العلاقة التي قامت بين المحلين والسكان. بحيث يستطيع أن يرى أنها كانت علاقة إكراه وإذعان. وأن المحتلين لم يأمنوا أبداً جانبهم. ولم تَقُم بينهم علاقات خارج الصيغة الإقطاعية، ولم يختلطوا بهم، بل ظلوا أبداً جاليات تُقيم في القلاع والحصون.

على هذا، فإن من الممكن أن نقسم القلاع والحصون التي شادها أو رممها الصليبيون، قسمة من وجهة نظر وظيفية، إلى قسمين:

- **القسم الأول:** قلاع استراتيجية. الغرض منها الدفاع عن حدود مملكة (القدس) الصليبية. وهي تمتاز بأنها محصنة تحصيناً متيناً، ومسلحة بآلات الدفاع، بحيث تصمد لجيش مُجهز بأدوات الحصار، وهي:

١ -**قلعة (هونين).** بناها سنة 575ه/1179م صاحب حصن (بانياس) أونفري دي تورول. المعروف في المصادر العربية باسم (الهنفري) على أنقاض قلعة رومانية. لتكون حزءاً من خط دفاعي في مقابل (دمشق). بعد أ، أخذ ميزان القوي في التحوّل لصالح المسلمين. وقد أخذت القلعة اسمها من اسم الجبل الذي شيدت عليه، جبل، (هونين) في أقصى شرق (جبل عامل) المشرف على سهل (الحولة) وبحيرته. وسماها الصليبيون عند بنائها (الجديد) Chateau mnut. وقد تبادلت عليها أيدي الصليبيين والمسلمين عدة مرات. وخُربت وأعيدت عمارتها، لتُحرر نهائياً على يد بيبرس البندقداري السلطان المملوكي، سنة 664ه/1266م.

٢ -**شقيف (أرنون).** واسمها تركيب غريب. ف (شقيف) من السريانية، بمعنى الصخر الشاهق. أما (أرنون) فنحن قد رجّحنا أنه من الفرنسية التي قلنا آنفاً أنها كانت اللغة السائدة بين الصليبيين. وهذا الاسم غدا فيما بعد علماً على قرية في الجوار. نرجّح أيضاً أنها نشأت في جوار القلعة كما شأن غيرها.

تقع القلعة في أواسط (جبل عامل) إلى الشمال أقرب، بجوار مدينة (النبطية). وتُشرف من موقعها العالي على كل المنطقة من حولها. من الساحل حتى منخفض (الحولة). وموقعها في غاية الأهمية، لأنها تقع على فم سهل (مرجعيون) بالنسبة للقادم من (دمشق)، ولا شك أنه كانفي المكان نفسه قلعة رومانية. وأن الصليبيين قد أحسنوا استغلال موقعها الحصين. كما

استافدوا من خرائب القلعة القديمة. لا يُعرف بانيها على وجه التحديد ولا تاريخ بنائها. لكن لا شك أنها شيدت قبل قلعة (هونين). ولها ذكر عريض في تاريخ الحروب الصليبية. وقد تبادلت عليها أيدي الطرفين عدة مرّات. وكانت منظمة الفرسان الصليبية، المعروفة في المصادر العربية باسم (الداوية) آخر من ملكها قبل تحريرها نهائياً.

٣ -**شقيف (تيرون).** حصن صغير بالقياس إلى سابقيه، خصوصاً شقيف (أرنون). لكنه حصين جداً بسبب موقعه على رأس جبل ارتفاعه الف ومائة متر تقريباً عن سطح البحر. أما ارتفاع الحصن نفسه عن محيطه فقد كان زهاء الثلاثمائة متر. موقعه بالقرب من مدينة (جزين). أي عند حدود (جبل عامل) الشمالية، المقابلة ل (جبل لبنان). إذن، فهو حصن دفاعي في وجه القوّات المعادية القادمة من جهة الساحل. ولم يكن ذا دور يُذكر في الحروب بين المسلمين والصليبيين، بسبب موقعه الذي لا يمنحه قيمة استراتيجية خاصة، بحسب الجغرافيا السياسية يومذاك.

٤ -**قلعة (تبنين).** في أواسط (جبل عامل). تتربّع على هضبة تعلو ستمائة وأربعة عشر متراً عن سطح البحر. وتشرف على كل ما حولها إلى مسافة بعيدة. كانت إبان الاحتلال المركزي العسكري والإداري في المنطقة ومقر الأمير الحاكم. والحقيقة أن تاريخها يلخص تاريخ (جبل عامل) تحت الاحتلال. ولذلك فإننا سنقف عليه بشيء من التفصيل.

- أمر ببنائها حاكم (طبرية) الصليبي، وتم سنة 499ه/ 1105م كما قلنا آنفاً. وذلك لحماية حدود الدولة الصليبية الجديدة من جهة إمارة (دمشق). ولتكون منطلقاً للأعمال العسكرية الرامية للاستيلاء على (صور). ثم غدت بعد سقوط (جبل عامل) كله المركز العسكري والإداري للاحتلال .
- بعد أربع وثمانين سنة استولى عليها صلاح الدين سنة 583ه/ 1187م بعد موقعة (حطّين) مباشرة.

- بعد وفاة صلاح الدين صارت لولده الأفضل. وفي عهده غدت مقراً لأول حاكم عاملي، وهو الأمير حسام الدين بشارة. الذي سنقول ما نعرفه عنه فيما يلي. ثم صارت للملك العادل أخو صلاح الدين. وفي هذه الفترة عادت مركزاً إدارياً للمنطقة، وعسكرياً للتضييق على (صور). مع ملاحظة انقلاب الأدوار. فالقلعة غت الآن بيد المسلمين، الذين يستخدمونها للتضييق على (صور) المحتلة.
- سنة 616ه/1219م دمرها الملك العظيم عيسى الأيوبي لعجزه عن حمايتها. ثم رُممت فيما بعد.
- سنة 627ه/1229م سلّمها الملك الكامل الأيوبي إلى الامبراطور فريدريك الألماني ضمن صفقة سياسية كبيرة. وبقيت بيده عدة سنوات.
- سنة 639ه/ 1240م أعاد الملك الصالح إسماعيل الأيوبي أمير (دمشق) تسليمها للصليبيين.
- سنة 664ه/ 1266م حررها الظاهر بيبرس نهائياً.
- **القسم الثاني:** حصون داخلية. قلنا أنها كانت بمثابة مخافر محصنة ومراكز إدارية معاً. على أن هذا لا يعني أنها لم تكن تُستخدم مراكز دفاعية أيضاً عند الضرورة، والعكس صحيح. فقلعة (تبنين)، التي بُنيت لتكون مركزاً قتاليا، استُخدمت فيما بعد، أي عند استقرار سلطة الصليبيين في المنطقة، مركزاً إدارياً. للاستفادة من موقعها المتوسط من (جبل عامل). الاعتبار الأساسي الذي أخذناه به في هذه القسمة هو موقع القلعة أو الحصن وحجمه ومتانة تحصينه.

تلك الحصون هي:

١ -**دُوبيه.** والاسم من الفرنسية كما رجّحنا آنفاً. موقعه قرب بلدة (شقرا). غير بعيد عن الحدود الفاصلة عن الأرض المحتلة اليوم. والظاهر أن الصليبيين بنوه على أنقاض حصن روماني.

٢ -**شَمَع.** اسمه من الآرامية كما يبدو. موقعه في جنوب (جبل عامل)، غير بعيد عن الساحل، مقابل (رأس البياضة). يُشرف على (صور) وسهلها من علو أربعمائة وعشرين متراً.ويمتاز بفخامة بنائه وجمال هندسته.

٣ -**مارون.** اسمه من اسم (جبل مارون) المجاور. موقعه قرب بلدة (دير كيفا) في أواسط (جبل عامل). والظاهر أن الصليبيين جددوا بناءه على أنقاض حصن روماني.

٤ -**ابي الحسن.** وهو الحصن الوحيد الساحلي. موقعه قرب (صيدا). وأيضاً الحصن الوحيد الذي يحمل اسماً عربياً. ولا نعرف مناسبة ذلك. ومهما يكن، فإن الاسم يبعث على الظن بأنه من بناء المسلمين، لكن لم يذكر ذلك أحد، وهذا إن لم يكن الاسم محرفاً عن أصله. فضلاً عن أن القاعة المعروفة في هذه الفترة أن الصليبيين كانوا يبنون التحصينات بمختلف أنواعها والمسلمون يهدمونها.

أما أول حصن بناه الصليبيون في (جبل عامل)، وقلنا فيما فات إنه كان على (تل المعشوق) بجوار (صور)، فلا أثر له. وأيضاً لا ذكر له في سجل من أحداث الفترة.ولم يذكره أحد من الرحالة الذين زاروا المنطقة فيما بعد، واهتموا بتسجيل مشاهداتهم فيها. فإما أن الصليبيين لم يكملوا ما بدأوا به، وهو الأرجح، لأنهم تخلوا عن محاولة احتلال المدينة بعد حصار غير طول، كما ذكرنا آنفاً ،وإما أنه اندثر بعد أن زالت الحاجة إليه باحتلالها فيما بعد.

ذلك هو كل ما نجده في (جبل عامل) من آثار مادية باقية نم فترة الاحتلال الصليبي الطويلة. إلى جنب آثار أدنى شأناً من مدافن وعمائر ذكرنا بعضها فيما فيما فات، وأعرضنا عن ذكر ما سواها لقلة الجدوى، وبخلاف ذلك فإن الباحث لا يجد تلك الفترة ما يذكر بها.

(8)

تبقى الإشارة إلى نص يتصل بحالة العمران التي كان عليها (جبل عامل) في فترة الاحتلال الصليبي. نرى أنه لا بد من الوقوف عليه وقفة ما، لصلته الماشرة والمتينة بالموضوع. على أنه ضئيل الفائدة، للأسباب التي سنُدلي بها.

ذلك هو نص معاهدة التي عقدها السلطان المملوكي، المنصور سيف الدين قلاوون، أبو المعالي الألفي (678- 689ه/ 1279- 1290م) و (مالكة صور) الصليبية (دام مراريت بنت سيرهنري بن الإبرنس بيمند.

DAME Marauerite fille de aire Henri fils de prinse boemond

بتاريخ الخميس 14 جمادى الاولى 684ه/19 تموز 1285م المثبت نصها في (تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور/ 103- 110).

تأتي أهمية النص من أنه الوحيد الذي يقدم ثبتاً يُفترض أنه شامل بالقرى والضياع والمزارع التي كانت في نطاق (صور)، في أواخر القرن السابع للهجرة /الثالث عشر للميلاد. أي في أواخر فترة الاحتلال الصليبي. والإحصاء يرد في سياق ثسمة المنطقة موضوع المعاهدة بين السلطان المملوكي والأميرة الصليبية ولذلك فلا مجال مبدئيلً للشك في دقته وشموله.

يبدو جلياً من نص المعاهدة أن الأميرة الصليبية لم تكن في وضع يسمح لها بإملاء الشروط. وأن غاية ما كانت ترجوه أن يُسمح لها بأن تحتفظ ببعض الأملاك اتابعة لإمارتها. التي كانت في يوم من أيام محدودة بأملاك أمير (تبنين) من الشرق، وإمارة (القدس) من الجنوب، وإمارة (صيدا) من

الشمال. ولا عجب فقد كان المماليك آنذاك ماضين في تحرير مدن الساحل. وقبل سنة من تاريخ المعاهدة كانوا قد حرروا (طرابلس) وأكثر مدن للساحل ولم يكن قد بقي أمامهم إلا (عكّا) و (صور) والحقيقة أن الملك المنصور نفسه توفي بعد خمس سنوات وأشهراً. وهو يستعد للاستيلاء على (عكا). لكن خلفه نجح في تحريرها بعد سنتين وأشهراً.تبعتها (صور) لتسقط دون قتال في 17 جمادى الأولى 690ه/ 16 أيار 1291م. وهكذا نعرف أ، تلك المعاهدة، التي عُقدت لمدة عشر سنوات كوامل، لم يُتح لها تطور الأحوال أن تموت حتف أنفها.

هذه الوثيقة الفريدة، كان يمكن أن تكون ذات فائدة جليلة بالنسبة لما نسعى إليه، بما تعرض له من ذكر مواطن السكن والانتاج. لولا أنها، أولاً، لا تُغطي سوى المنطقة الساحلية والهضاب القريبة منها. ولا تعرض لقلب الجبل وأعاليه الشرقية. وثانياً، لأن تاريخها يرجع إلى نهايات الحكم الصليبي. قبل التحرير الكامل بثماني سنوات. وخلال فترة الاحتلال كان الجبل قد تذبذب بين الاحتلال والتحرير لمدة قرن كامل. أي منذ أن حرر صلاح الدين أعاليه، خلال السنوات 583- 585ه/1187- 1189م. إذن، فهي لا تقدم كبير نفع لمن يتتبع تطور عمران الجبل. بسبب عجزها عن تغطية فترة زمنية تمتد مائة واثنتين وسبعين سنة عداً. أي منذ سقوط (صور) عام 518ه/ 1111م حتى تاريخ المعاهدة. وثالثاً، وهذا هو الأكثر أهمية،أ، أسماء القرى والضياع والمزارع، كما نقرأها اليوم في المصدر الذي نأخد عنه، مشوش جداً بسبب تصحيفات النُسّاخ فيما يبدو. تصحيفات ثبتها محقق الكتاب أن اسم (باتوليه) صار على يده بابوليه، و(حنويه) حيويه، و (عِبّا) عيا، و (رشكانية) ورسكانيه، و (جويّا) حوبا، و (النفاخيّة) التفاحية، و (طير دبا) طير ديا، وما إلى ذلك. مما أضاع علينا اليوم فرصة الإفادة من هذه الوثيقة. خصوصاً فيما يرجع إلى ما انذثر من هاتيك القرى والضياع

والمزارع. والأخريات التي وجدت من بعدها. أي إجمالاً، الحركة السكانية بقدر ما يُعبر عنها العمران.

لكن من غريب الاتفا، أن ما تُسميه المعاهدة (بلاد صور) (نفسه/106)، وتضع علامات بيّنة لحدودها، يطابق تماماً ما نسميه اليوم في القسمة الإدارية (قضاء صور). ولا ريب أن ذلك الإطلاق يعكس ارتكازاً كان مُتسالماً عليه ومعمولاً به في زمانه. حدودها، أعني (بلاد صور)، بحسب ما تقوله المعاهدة، من الشمال (نهر القاسمية)، ومن الشرق قريتا (صريفا) (التي تسمى في النص صريفا) و (رشكانية) ومن الجنوب قرية المعاهدة بالاسم ثمانياً وثمانين قرية وضيعة ومزرعة. كثير منها غير معروف اليوم. ومع ذلك فإن الفائدة هي في هذا الإحصاء. ذلك أنه يدلنا على مبلغ نجاح المحتلين في استثمار الأرض والإنسان. استثماراُ يعود الجزء الأكبر من خيره عليهم. وفق سياسة دقيقة، قرأنا عنها لدى ابن جبير آنفاً. وما هذا ومثله بالأمر المفاجئ لنا. نحن الذين عرفنا حاجة لمن يستنبط لهم الأرض ويعمهم بخيراتها.

(9)

نفتقد هنا ما يمكن أن نسميه الآثار المعنوية للاحتلال. يعني تبادل التأثير الثقافي (التثاقف)، ومعلوم أن مثل هذه التأثيرات تنشأ عفواً من التقاء شعبين ينتميان إلى حضارتين وثقافتين مختلفتين. وتبدو في اللغة وأسلوب العيش والعادات والتقاليد والفنون وما إلى ذلك. كما أن من المعلوم أم المغلوب يميل إلى التشبّه بغالبه.

ما نبحث عنه هنا هو ما يمكن أن يكون قد أخذه أهل (جبل عامل) عن

محتلي أرضهم. فلا نجد له أثراً على الإطلاق. مع التقاء الحضارتين والثقافتين كان فيه أقوى ما كان بالقياس إلى أي بقعة إسلامية أخرى، مما بسط الاحتلال الصليبي علبه سلطانه. لأنه كان لقاء على مساحة عريضة بشرياً وزمنياً حيث تساكنت أجيال من الطرفين لمدة طويلة من الزمان، تقل قليلاً عن القرنين. فضلاً عمّا كنا قد ذكرناه سابقاً. إن (جبل عامل) قد تكون بشرياً تحت الاحتلال الصليبي. ومن المتوقع أن تكون الثقافة المحلية في هذا الظرف أقل ممانعة للتأثر بالأجنبي. خصوصاً وأن أولئك الناس الذين اضطرتهم الحرب القاسية وغير المحتسبة إلى النزوح فجأة عن أوطانهم، قد انقلعوا من أرضهم وتفرقوا في البلاد. ومعلوم أن الذاكرة الجمعية أو جزء منها. وغالباً ما تتحول تحت وطأة هذا العامل إلى أسطورة. مما نفهم منه أن اتصال أهل (جبل عامل) بالمحتلين قد حدث تحت وطأة ظرف قاس. كانوا فيه مفتقرين إلى عوامل الممانعة والرفض. ومع ذلك فإننا لا نجد أي دليل على تأثر المغلوبين بغالبيتهم في أي حقل من الحقول. ولو كان موجوداً في وقته لكان حتماً أن يستمر أو قسم منه على الأقل حتى اليوم.

طبعاً لا بد أن يكون لذلك الغياب سبب أو أكثر. وطبعاً ليس بيدنا، ونحن نبحث عن السبب، إلا أن نخمّن. ذلك أننا لا نملك من المعلومات عن أولئك النازحين الذين نزلوا (جبل عامل) لا قليلاً ولا كثيراً. مما يُعيننا على أن نقول في أمرهم عن علم أو شبه علم.

لكننا أيضاً ما نشط أن ذلك الغياب إمارة لا تقبل النقض على قوة ومتانة البنية الثقافية لأهل الجبل، على الرغم من كل ما رأينا فيه عاملاً من عوامل التثبيط والإحباط. وذلك الحكم لا يحتاج إلى دلبل أكثر مما لاحظناه من غياب أي أثر من آثار الاحتلال. فالجسم عندما يقاوم العاديات، فلا يسمح

لها أن تحفر فيه آثارها، فهذا بذاته دليل على على صلابته وقوة ممانعته. هذا مع ضرورة ملاحظة أن (جبل عامل)، لم يكن آنذاك هو نفسه الذي دخل التاريخ فيما بعد، بوصفه منبع العماء وظاهرة ثقافية أثارت وما تزال تثير دهشة الدارسين. ذلك أنها نبتت من غير أساس وازدهرت فيما بعد ازدهاراً عجيباً. بحيث أصبحت حلقة أساسية في تطور الحركة الفكرية والعلمية الشيعية، المتنقلة في أرجاء العالم الشيعي. الأمر الذي يجب أن يفهم منه القارئ الحصيف، أن أولئك اناس إذا صمدوا على ذاتيتهم ما يقل قليلاً عن قرنين، لم يغيّروا ولم يبدلوا ولم يهنوا، كانوا يفتقرون إلى العنصر الأساس الذي من وظيفه حراسة الثقافة الخاصة لشعبه، والتسامي بها عن طريق التأمل في عناصرها، والذي يقود بدوره إلى التراكم، وإلى المواءمة بين معطيات الواقع وضرورات الحفاظ على الذاتية.

هكذا، فكأن فترة الاحتلال الصليبي المظلمة، بأكثر من معنى كانت جمل معترضة لا معنى له في تاريخ الجبل. الذي سيشهد بعد قلبل تبدلاً أساسياً وغير متوقع إطلاقاً. بدأت إرهاصاته قبيل انتهاء الاحتلال. منحه حضوراً فكرياً هائلاً بعيد الأثر. مما وصفنا بعضه في كتابنا (الهجرة العاملية إلى إيران في العصر الصفوي. أسبابها التاريخية، وآثارها السياسية والفكرية).

4 - المرحلة الثالثة

بعد خمس وستين سنة قمرية من الاحتلال الصليبي التام ل (جبل عامل)، بدأ مجرى الأحداث يتحول شيئاً فشيئاً إلى غير صالح المحتلين وربما كان من الغني عن البيان. أن ذلك أن القارئ بات يملك من المعرفة ب (جبل عامل) تحت الاحتلال ما يكفيه لأن يقرر، أنه في وضعه ذاك كان أعجز وأضعف بكثير من أن يجترح ما من شأنه أن يكون له معنى التغيير ، مهما يكن تغييراً هيناً.

والحقيقة أن التحول، الذي أخذ بشكل متعاظم كلما تقدمت به الأيام شكل هجوم مضاد على الاحتلال الصليبي، قد بدأ على يد أتابك السلاجقة في الشام، نور الدين محمود بن زنكي، المعروف بلقب الشهيد (541ـ 589ه/ 1246ـ 1193م) .

يوم 3محرّم 575ه/ 10 حزيران 1179م شهد سهل (مرجعيون) الخصيب أول صدام كبير بين عسكر صلاح الدين والصليبيين. والحقيقة أن الصدام حصل دونما تخطيط مسبق من الطرفين. وإنما فرضه تطور أحداث بدأت بغارات سريعة للمسلمين على الأملاك اصيبية المجاورة. والظاهر أن الصليبيين أرادوا أن يلقّنوا صلاح الدين درساً قاسياً، يمنعه من التفكير بأن ينتزع المبادرة العسكرية منهم. فجمعوا على عجل فيما يبدو، وقوة هائلة.

اشترك فيها مقاتلون من (طرابلس) و (جبيل) و (الرملة) و (نابلس) و (طبرية) و (جنين)، كل منها بقيادة

أميرها. فضلاً عن الاسبتارية والداوية بقيادة رئيسيهما. والكل بقيلدة بلدوين (بغدوين) ملك (القدس). واتجه الجيش الكبير شمالاً إلى حيث رصدت القوات الإسلامية المغيرة، التي كانت في حالة تشتت. دون أن تعرف بما يبيت لها. وعلى الرغم من التفوق العددي الكبير للقوات الصليبية، وامتلاكها لعنصر المفاجئة، فإن تطورها في أخطاء تكتيكية واضحة، ربما لاستهانتها بعدوها، قد أدى في النهاية إلى إنزال هزيمة ساحقة بها. (وقُتلت منهم مقتلة كبيرة. ونجا ملكهم فريداً، وأُسر منهم كثير، منهم ابن بيرزان، باليان الثاني دي أبلين، صاحب الرملة ونابلس. وهو أعظم الفرنج محلاً بعد الملك. وأسروا أيضاً صاحب جبيل، وصاحب طبرية، ومقدم الداوية، ومقدم الاسبتارية، وصاحب جنين وغيرهم من مشاهير فرسانهم وطواغيتهم)
(الكامل: 11/455ه-56). كان ذلك أول نصر كبير لصلاح الدين في وجه قوة صليبية منظمة ومتأهبة.

خلال السنوات الأربع التالية ظل ممر (الليطاني)، الذي يصل ما بين (سهل البقاع) و (جبل عامل)، منطقو التماس الإسلامية- الصليبية الوحيدة الساخن.حيث القوات الإسلامية القادمة من (دمشق) اتخذته مسلكاً للغارة على الأملاك الصليبية. غارات متتالية تولاها دونما كلل ابن أخي صلاح الدين، ونائبه في (دمشق) آنذاك، ثم الأمير على (بعلبك) فيما بعد، فرّوخ شاه، معتمداً أسلوب الغارات الخاطفة، لعجزه عن مواجهة القوات العدوة في معركة فاصلة.

في وقت ما من العام 578ه/ 1182م بدأ- سلسلة من الأحداث آلت إلى تحرير أول بقعة من (جبل عامل). ذلك أن ملك (القدس) الصليبي بلدوين الرابع حشد جيوشه واتجه نحو (كرك الشوبك) في (الأردن) لمعاقبة فصله النزق رينولد دي شاتيون، المعروف عند العرب باسم أرناط. لأنه دأب

على عصيان أوامره، والعمل دونما حساب لسياسة المملكة. ومن ذلك أنه تجاهل الهدنة المعقودة بين صلاح الدين وبلدوين. وخرج على رأس قوة عسكرية، اخترقت جزيرة العرب حتى وصلت إلى واحة (تيماء). معلناً أنه يريد الاستيلاء على (المدينة المنورة). وطبعاً كان ذلك اسفزازاً بالغاً للمسلمين،في وقت كان الصليبيون بحاجة إلى السلام الذي وفرته الهدنة القائمة. كما أنه هاجم قافلة إسلامية كبيرة، كانت متجهة من (دمشق) إلى (مكة) دونما تحرّز، لما كان هنالك من هدنة، فأوقع بها قتلاً وأسراً ونهباً.

اتجاه الجيوش الصليبية إلى (الأردن) ترك إقليم (الجليل) مكشوفاً دونما حماية. فانتهز فروخ شاه الفرصة، وأغار في عمق أراضي العدو، مخترقاً المنطقة من (وادي الليطاني) إلى (عكا)، ولم يلتفت الصليبيون إلى الخطأ الفادح الذي ارتكبوه إلا بعد فوات الأوان. وفي الأثناء نجح فروخ شاه في الاستيلاء على قلعة (الشقيف أرنون) ولقد عرفنا مما سلف أن القلعة تقع في أواسط (جبل عامل)، بجوار مدينة (النبطية)، وأنها كانت من أكثر القلاع الصلبية أهمية، لحصانتها وموقعها الاستراتيجي على فم سهل (مرجعيون) بالنسبة للقادم من (دمشق) وغني عن البيان أن الاستيلاء عليها يعني تحرير المنطقة التي تسيطر عليها. وهي كانت وماتزال من أكثر بقاع (جبل عامل) عمرانا. إذن، فمن حق هذه الحصيلة أن تدخل التاريخ، يوصفها أول قلعة صليبية في (جبل عامل) تسقط بيد المسلمين، وأول أرض يحزرونها منه لكن الظاهر، بدلالة ما سيأتي، أن فروخ شاه عجزعن الاحتفاظ بالقلعة بعد عودة الجيوش الصليبية إلى المنطقة، لأسباب غير خفية.

(2)

العطلة الكبرى في تاريخ (جبل عامل) باتجاه التحرير، وتالياً باتجاه الصيرورة نحو الكيان، بدأت بالوضع الانقلابي في ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين، الذي أنشأ عن معركة (حطين)، في 25 ربيع الآخر

583ه/ 4 تموز 1187م. من الواضح أن ما يشير إليه هنا لم يكن يخص (جبل عامل) وحده. ولكن تأثير ذلك الوضع الانقلابي بالنسبة للجبل يأخذ معنى مختلفاً. لأنه حتى الآن لم يكن أكثر من تجمع ظرفي لبشر اضطرتهم الحرب إلى الالتجاء إلى أقرب الجبال إليهم، لا لشيء إلا لأنه وفّر لهم حدّاً مقبولاً من الأمن. والظاهر أن الرابطة الوحيدة التي كانت تجمع أولئك الناس، أو تجمع أكثرهم، إذ ذاك كانت الرابطة المذهبية ليس غير. لكننا سنرى أن تاريخه الذاتي سيبدأ بعد قليل، انطلاقاً من تلك ارابطة نفسها.

كانت (حطين) أكبر بكثير من نصر في معركة. فهي لم تتمخّض عن قتل وأسر أكثر قادة وأمراء الصليبيين، ومنهم قادة تاريخيون. وكان من جملتهم أعلاهم شأناً ملك (القدس) نفسه. وعن القضاء على زهرة الفرسان الصليبيين، الذين حفظوا الحالة الصليبية بسيوفهم في كل ما مضى، أي حتى عشية (حطين) ـ بل إنها بالإضافة إلى ذلك كله وضعت نقطة الختام عند نهاية تاريخ حافل. وذلك إذ أنهت مملكة (القدس) الصليبية. التي ظلت لمدة أربع وثمانين سنة عدا الرمز المادي الذي منح التجمع الصليبي ومَن وراءه بُعداً روحياً سامياً عندهم. كما تركت إماراته ومعاقله في جنوب (الشام)، ومنه (جبل عامل)، جسماً مشلولاً عاجزاً عن الدفاع عن نفسه. لذلك فلا عجب أن رأينا مدنه زقلاعه تتهاوى أمام السلطان المنتصر، صلاح الدين عن (صور) بغيرها لتحررت هي أيضاً، و (لأخدها بغير مشقة. لكنه استعظمها لحصانتها، فأراد أ، يفرغ باله مما جاورها من نواحيها ليسهّل أخذها، فكان ذلك سبب حفظها. وكان أمر الله قدراً مقدوراً) (الكامل: 11/ 543) ولتحرر بتحريرها كامل الجبل، ولما كان عليه أن ينتظر تحت الأسر مدة مائة وسبع سنوات أخرى.

(3)

علينا الآن أن نقف ملياً عند المعنى المعنى الحقيقي- العلمي لهذا الذي سميناه في أول الفقرة السابقة عطفة كبرى في اتجاه التحرير والصيرورة ل (جبل عامل). معنى يتجاوز بكثير النصوص التاريخية التي أخذنا عنها. لأن هذه تصرف عنايتها نحو السلطة وأعمالها ومراكزها. ومن تلك امراكز المحصنة والمراكز السكنية الكبرى. مما يجعلها، أعني تلك النصوص، عاجزة بطبعها، وبتكوينها المهجي، عن ملاحظة وقع الأحداث على العباد، الذين يضطربون فيها ويخضعون لنتائجها دون أن يكون لهم يد في صنعها، لكن ما يمكث منها فإنما بهم وفيهم.

ولقد علمنا مما فات، وهو أمر معروف على كل حال، أن الأماكن المحصنة، من مدن وقلاع وحصون، هي مراكز سيطرة ذات مدى حيوي. بحيث أ، من يسيطر عليها ينشر سلطانه على ما يليها ويحيط بها. وفقاً لمعادلة معقدة، يدخل فيها حجم الحصن، ومتانة تحصينه، وحجم ودرجة استعداد القوى المقاتلة فيه، وعلاقته بالحصون أو المراكز السكنية المحصنة المجاورة . . . .الخ ومن المفهوم أن هذه المعادلة تكون تكون عُرضة لمختلف الاحتمالات، تبعاً لميزان القوى المحلي، وللحالة العامة من سلم وحرب.

هذا، ثم أننا نعرف مما علّقناه على المرحلة الثانية من مراحل الاحتلال الثلاث، أن قلعة (تبنين) قد شيدت لتكون مركز انطلاق للتضييق على (صور) فاحتلالها. ولكنها بعد سقوطها غذت مركز سيطرة وإدارة رئيسي، ومقراً لأمير تصل سلطته إلى حدود إمارة (صور) نفسها. أما (الشقيف أرنون) الذي

قلنا أنه يقع في أواسط (جبل عامل) إلى الشمال أقرب، و (هونين) الذي كان على أطرافه الجنوبية، فهما في الأساس حصنان دفاعيان، حماية المملكة اللاتينية من جهة (دمشق). وطبعاً كان لهما دورهما في بسط سلطة الاحتلال وإدارته، كما أوضحنا آنفاً. والجدير بالملاحظة أن مصادر الفترة تسكت عن مصير بقية الحصون الأصغر والأقل أهمية التي كانت منتشرة داخل الجبل. والمرجح أنها تحررت هي أيضاً تبعاً لتلك الأساسية الثلاث.

والآن، وقد تحررت كافة حصون الجبل، أو أهمها وأكثرها على الأقل، ولم يبقَ بيد المحتلين إلا (صور)، فقد حصل، أولاً، انقلاب في الأدوار عما كان في المرحلة الأولى من الاحتلال. ف (صور) التي كانت في تلك المرحلة على صمودها، غدت الآن، ولمدة طويلة من بعد، المركز السياسي والعسكري الأول للصليبيين في جنوب (الشام)، بعد أن لجأت إليها أغلب فلولهم. في حين أن قلعة (تبنين) غدت، ولفترة على الأقل ، منطلق القوة العسكرية الإسلامية المحلية للتضييق عليها.

لكن الحاصل الثاني والأكثر أهمية هو خريطة سياسية جديدة ل (جبل عامل) يمكن تلخيصها بالشكل التالي:

(صور) مع مدى حيوي محصور بالمنطقة الساحلية والأسافل المسامتة لها من ثلاث جهاتها بقيت كلها تحت إدارة الاحتلال. ولسنا نعرف بالتحديد حدود هذه المنطقة. لكن يمكن الاستئناس في هذا النطاق بنص المعاهدة التي عقدها السلطان أبو المعالي الألفي مع آخر أكيرة صليبية على (صور). ويمكن مراجعتها في الفقرة الثامنة من القسم السابق. حيث يرد فيها مصطلح (بلاد صور) مع تحديد واضح لها. مما يُفهم منه أنه كان إذ ذاك مصطلحاً راسخاً. ربما يرجع إلى أوائل المرحلة الثالثة من مراحل مراحل الاحتلال. التي حصلت المعاهدة في خواتيمها.

أما أواسط (جبل عامل) وأعاليه، وصولاً إلى (سهل مرجعيون) شرقاً و (بانياس) شمالاً، فقد حظيت بإدارة محلّية.

تلك هي أول إدارة سياسية محلية ل (جبل عامل) على رأسها أمير من أبنائه. وهي خطوة كبيرة بالنسبة لتاريخه. لما عرفناه مما فات من أنه كان إلى ما قبلها مجرّد تجمّع ظرفي لبشر لا يجمع بينهم إلا اللجوء إليه هرباً من ويلات الحرب، وإلا الرابطة المذهبية. ثم لما عرفناه أيضاً من أن أجيالاً منهم قد عاشت وماتت دون أن تعرف إلا تلك الحياة الزرية البائسة، التي هي أشبه ما يكون بحياة العبيد: يعملون على أرضهم لغيرهم . وما ملاحظ ابن جبير في هذا النطاق، حيث وصف حياتهم تحت الاحتلال بأنها (حالة ترفيه) إلا صورة سطحية ساذجة من عابر سبيل، وسنخصص الفصل التالي لهذه الفترة ذات الأهمية الخاصة في تاريخ الجبل. وعليه فإننا سنعود إلى ما بقي من تاريخ (جبل عامل) أي من بعد صلاح الدين حتى تحريره النهائي.

(4)

تلك وفاة صلاح الدين (ت: 27 صفر 589ه/ 5 آذار 1193م فترة مضطربة جداً. وضعت إنجازاته العظيمة في مهب الرياح. ولو أن وضع العدو الصليبي كان على مثل أيام ما قبل (حطين) لضاع كل شيء.

ذلك أن صلاح الدين ترك من بعده ملكاً واسعاَ ،اشتمل على (مصر) و (الشام) معاً. ولكنه ترك أيضاً عائلة كبيرة فيها الأبناء والأخوة وابن الأخ وابن العم. صرفوا الجزء الأكبر من جهدهم من بعده في النزاع والتخاصم على هذا الجزء أو ذاك من التركة. الأمر الذي كان له أسوأ الأثر على ما بقي من أيام الاحتلال طيلة ما يزيد عن القرن. وطبعاً نال (جبل عامل) من ذلك الاضطراب وآثاره نصيبه. بقدر ما كان له من نصيب في الصراع. وبقدر ما كان لرقعه الوسطية من أهمية فيه.

ولقد وقع (جبل عامل) من بعد صلاح الدين في حصة ولده الأكبر، ومَن أعدّه ليكون خليفته، الملك الأفضل نور الدين أبي الحسن علي (مفرّج

الكروب:2/ 378). لكن الملك الأفضل لمك يكن بالرجل الذي يصلح للقيادة ولحكم دولى مترامية الأطراف في تلك الأيام الشداد. لضعفه وسوء سيرته وانصرافه إلى معاقرة الخمر واللهو وسماع الأغاني (السلوك: 1/ 118). ومع ذلك فإن الجبل ظل لفترة بمنأى عن الآثار السيئة للوضع الذي تخبطت فيه المنطقة من حوله. وذلك بفضل أميره الحكيم والشجاع، الأمير حسام الدين بشارة. الذي وعدنا القارئ بأن نفرغ لسيرته في الفصل التالي.

لكن إمارة بشارة لم تطُل غير سنوات معدودات، كما سنعرف، سقط بعدها الجبل في وهدة العبث السياسي الأيوبي البائس، والنزاع الذي لا ينتهي بين أبناء البيت على الكاسب الشخصية. وفي سبيل ذلك لم يتورّعوا عن ارتكاب أفظع الموبقات لاسياسية، كما سنعرف مما بقي في هذا الفصل.

(5)

بعد أربع سنوات من وفاة صلاح الدين كان الصليبيون في المنطقة قد أعادوا تنظيم ما بقي من صفوفهم، وتلقّوا نجدة من الغرب عُرفت في تاريخ الحركة الصليبية باسم الحملة الألمانية. فبدأوا هدوماً مضاداً، مستغلين، فيما يبدو، اضطراب وضع المسلمين وغياب القيادة الجامعة. فاستعادوا مدينة (بيروت) (الكامل / حوادث 593). كما حاولوا استرداد (اللاذقية) و (جبلة) ففشلوا. وفي هذا السياق اخترقوا (جبل عامل) مصعدين بحيث وصلوا إلى (تبنين) وبدأوا حصار قلعتها المنيعة. لكن حمايتها صمدوا لهم وقاتلوا قتالاً شديداً. بحيث اضطر المهاجمون إلى التخلي عن حصارها، وعادوا خائبين باتجاه (صور) (أبو الفدا: المختصر/ حوادث 594). وفي هذا ، وخصوصاً في قدرة الأعداء على اختراق (جبل عامل) وصولاً إلى أعاليه، دليل على أن تلك الحرية أو وضع التحرير الذي كان يتمتع به. بالقياس إلى المناطق المحتلة احتلالاً مباشراً، كان وضعاً هشاً ومرتهناً. وما ذاك إلا لمكان (صور)، التي أصبحت بعد خسارة الصليبيين (القدس) المركز السياسي والعسكري الأول لهم في المنطقة.

ومع ذلك فإن ذلك الوضع كان يملك من مقومات وأسباب البقاء ما أعطاه أن يستمر من بعد مدة غير قصيرة. وذلك لعجز كل من الطرفين، المسلمين والصليبيين، عن تعديله. لما هنالك من توازن سلبي للقوى بينهما. الصليبيون كانوا وما يزالون يعانون من آثار (حطين)، فضلاً عن بدء ظهور إمارات ملل الغرب من الشعار الصليبي إجمالاً. أما المسلمون فلم يكونوا أحسن حالاً بكثير. بسبب النزاعات الدائمة بين ملوك البيت الأيوبي. والحقيقة ـن تلك النزاعات، وليس غيرها، هي التي أدّت في النهاية إلى تخريبه، وذلك بعد أن عاش ثلاثاً وأربعين سنة عدّاً. أُشير بذلك إلى الصلح المشين الذي حصل بين الملك الكامل بن العادل الأيوبي وبين الامبراطور فريدريك الألماني سنة 626ه/ 1229م.

ففي ذلك التاريخ انعقد بين الطرفين ما سمي صلحاً. وما هو بالصلح في الحقيقة. بل مجرد تنازل مجاني للأعداء الصليبيين عن مناطق واسعة من بلاد الإسلام. بمقضاه استاعدوا (يبت لحم) و (الناصرة) و (القدس) و (تبنين) و (صيدا) بأكملها. حسب ما ذكره المؤرخون المسلمون المعاصرون (مثلاً: العيني عقد الجمان / حوادث سنة 626ه). وعبارة (تبنين وصيدا بأكملها) تهني (جبل عامل) كله. وهكذا عاد الجبل إلى الاحتلال مجاناً، ومعه ما ذكرناه من البلدان بها من ضياع قرى، دونما أدنى مبرر أو مسوغ سياسيأو عسكري، وهي التي تحررت قبل أربعين سنة ونيّف بسواعد المجاهدين.

لسنا ندري ماذا كان وقع هذه الردة على أهل (جبل عامل)، وهي التي أعادتهم بجرّة قلم إلى حياة الأسر. كما أننا لا ندري كيف تلقوها وهم الذين خبروا قبل عقود قليلة حياة الجهاد بقيادة أميرهم حسام الدين بشارة. وما علة هذه الجهالة عندنا إلا أن الجبل وأهله كانوا دائماً خارج اهتمام كتّاب التاريخ، مثل كل العباد، لا يُذكرون إلا بمقدار ما تتقاطع أخباره وأخبارهم مع أخبار

ذوي السلطان. ولكننا نعرف على نحو الإجمال، أن تسليم (القدس) وغيرها إلى الأعداء بتلك السهولة، ودون أدنى مبرر، قد أثار موجة عارمة من السخط والأسى بين المسلمين كافة. ويصف المقريزي في (السلوك: 1/ 231) بعض المظتهر العلنية للسخط والأسى بقوله☹واشتد البكاء، وعظم الصراخ والعويل. وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل وأذّنوا على بابه في غير وقف ا لأذان . . . وعظم على أهل الإسلام ذلك البلاء واشتدّ الإنكار على الملك الكامل. وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار). وغني عن البيان أن شأن الناس في (جبل عامل) لم يكن على غير ما وصفه من سخط وأسى، وهم الذين أصيبوا بالردة في بلدهم وأنفسهم إصابة مباشرة.

والحقيقة أن ذلك (الصلح) المشين كان فاتحه لمثله وشبيهه غير مرة، مما سنذكره بعد قليل. والكل مما اضطربت فيه السياسة الأيوبية أيما اضطراب. والكل ناشئ عن النزاعات الدائمة بين ملوك البيت وأمرته، نزاعات ليس وراءها إلا شهوة السلطان ونزعة الملك. وهي النزاعات التي أدّت إلى فشل سياسي عام وكامل للبيت الأيوبي وخسران، ومن ثم كتبت له لانهاية، وهو البيت الذي أقام مجده أول ما قام على الجهاد وعلى الإنجازات السياسية والعسكرية الكبيرة.

إن في ذلك لعبرة.

مهما كان فغن مفعول (صُلح) فريدريك والكاكل امتد خمسة عشر عاماً. أي منذ سنة 626ه/ 1229م، عام توقيه=ع الصلح بينهما، حتى السنة 641ه/ 1244م، عام اقتحم الخوارزمية (القدس) وأنهو الوجود اصليبي الضعيف فيها للمرة الأخيرة.

ولكن ماذا عن الوضع في (جبل عامل) خلال تلك المدة؟؟

المصادر التاريخية تضطرب في هذا أيما اضطراب. بحي أن ما نحصّله منها بعد التدقيق والتنقيب إنما هو على نحو الترجيح، ومما نستفيده من لوازم

الكلام. فلقد عرفنا بمقضى الصلح صار (جبل عامل) إلى سلطة فريدريك. كما أننا نعلم أنه خلال تلك المدة كانت مدينة (صور) تباعة لها. وكان له فيها نائب اتخذ منها قاعدة لحكمه. لكننا نجد في المصادر نفسها ما يدل أن الصليبيين لم يكن لهم وجود فعلي في الجبل، بل أن السلطة كانت فيه لمعسكر الإسلام. بشهادة ما تقوله من أنه في السنة 639ه/ 1241م. أقدم صاحب (دمشق) الصالح إسماعيل، حفيد صلاح الدين من ابنة الملك الأفضل، على تسليم الصليبيين (القدس وطبرية وعسقلان) فضلاً عن (قلعة القيف أرنون وأعمالها وقلعة صفد وبلادها وجبل عامل وسائر بلاد الساحل) (السلوك: 1/ 3ـ 3). الأمر الذي أثار الرأي العام في العالم الإسلامي. مثلما ثار م قبل على الملك الكامل بن العادل. ويروي أبو المحاسن في (النجوم الزاهرة:6/ 323) أن الحامية الإسلامية في (القيف أرنون) رفضت الانصياع لأوامر الصالح، وتسليم الحصن إلى الصليبيين بحيث اضطر إلى الحضور بنفسه ومحاصرة الحصن. إلى أن سلمت حاميته فأنزل بأفرادها العقاب. ونحن نفهم من ذلك ضمناً أيضاً حامية من الصليبيين حلّت في الحصن، بل وفي غيره من حصون (جبل عامل). ففي السنة 641ه/ 1243م كانت قلعة (تبنين) تابعة للفرسان الاسبتارية (الحركة الصليبية/ 1041) وفي العام نفسه أعلن الملك الصالح أيوب حق الصليبيين في ملك (الشقيف أرنون) وإقليم (الجليل). بما فيه حصني (تبنين(و (هونين). (المصدر نفسه / 1040).

والظاهر أن (جبل عامل) ظل بكامله قيد الاحتلال مدة تناهز الربع قرن من بعد ذلك الاعتراف. وفي السنة 665ه/ 1226م حرر السلطان الظاهر بيبرس (هونين) و (تبنين). وفي العامل التالي حرر (الشقيف أرنون) لكن (صور) الحصينة بقيت صامدة ربع قرن آخر. لتحرر هي أيضاً سنة 690ه/ 1290م. وبذلك انتهى الاحتلال الصليبي ل (جبل عامل).

الفصل الثاني

حسام الدين بشارة العاملي

أمير (جبل عامل)

(تمهيد)

كُنّا قد وعدنا القارئ في الفصل السابق، بأننُخصص هذا افصل للأمير بشارة. لما له من دورخطير في تاريخ (جبل عامل). بحيث يمكننا أننقول دون ترر، إن صاحب الدور الأول في نقله من طور التجمّع الظرفي إلى طور الكيان، بمعنى من المعاني، على قاعدة الجهاد والعمل المباشر باتجاه التحرير. وغني عن البيان، أنها كانت نقلة أساسية جداً في تاريخه. مهدت وأسست للنقلة التالية. على قاعدة ثقافية هذه المرة. التي تولاها وقادها علماؤها منذ الشهيد الأول رضوان الله عليه.

والحقيقة أنه كان م حق مادة هذا الفصل أن تُدرج في الفصل السابق. نظراً للقسمة المنهجية التي وضعناها والتزمنا بها هناك. حيث قسمنا مدة الاحتلال إلى مراحل ثلاث، محل سيرة الأمير بشارة في المرحلة اثالثة منها. بيدً أننا آثرنا أن نفرد الكلام على الأمير في فصل برأسه، لما له ولإعماله في الجبل من أهمية خاصة، كان سيحرمها من أنة تنال حقها من التركيو من الكاتب، ومن الانتباه من القارئ.

وجدير بنا أن نُنبه في بداية الكلام، إلى أننا بهذا الفصل سندخل في الجانب غير المرئي من تاريخ الفترة. نقول، غير المرئي، حتى بالقياس إلى الفصول الأخرى من البحث. التي لا نزعم أنها تقع في الجانب المرئي. بل كلها خاضعة لبؤس التاريخ السلطوي وقصوره المنهجي. لكن هاهنا أسباباً إضافية، تجعل مهمة المؤرخ أكثر عسراً. سنشير إليها في طيّات الكلام الآتي.

إن المؤرخ الذي يُحسن قرارة المادة التاريخية، التي بين أيدينا، عن العهد الأيوبي إجمالاً. ويُحسن إلى ذلك نظمها في نسق متماسك.يتصيّد عناصره من معلومات موزّعة، لا تُفصح عفواً عمّا بينها من علاقة – هذا المؤرخ يملك أن يعيد تركيب صورة جديدة تماماً عن تاريخ (جبل عامل) في ذلك الأوان. لا نجد عنها كلمة واحدة مباشرة، في كل ما صدر عن تلك الفترة من صنوف التأريخ، سواه منه الحدثي أم الشخصي. تلك صالورة الجديدة تتصل بجانب مجهول منه، وبما كان لأهلية من حضور ودور في التجمع الذي ناجز الصليبيين تحت قيادة صلاح الدين. جرى التعتيم عليه، أو بالأحرى تجاهله، لسبب ما. نرجح أنه في الأساس القصور المنهجي الطبعي، الذي هو آفة التاريخ السلطوي. لكننا لا نشك أيضاً أن العصبية المذهبية قد ساهمت فيه أيضاً. وسيلمس القارئ ما يضيء له هذه الملاحظة بعد قليل.

تلك المادة ترجع إلى أيام صلاح الدين (559ـ 589ه/ 1163- 1192م). حيث تتوفر المعلومات التاريخية بشكل ممتاز. بفضل كاتبي سيرته بهاء الدين بن شداد (ت: 632ه/ 1234م) في (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) وعماد الدين الأصفهاني (ت: 597ه/ 1200م) في (الفيح القسّي في الفتح القدسي). فضلاً عن عز الدين ابن الأثير (ت: 630/ 1232م) في تاريخه الشهير (الكامل). ولأبي شامة (ت: 665ه/ 1264م) أهمية خاصة في كتابه (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية). مع أنه متأخر زماناً عن صلاح الدين. بفضل اقتباساته الكثيرة عن ابن أبي طي، محي الدين بن حميدة الحلبي (ت: 630ه/ 1232م) في كتابه الثمين والضائع على سيرة صلاح الدين. مما يحمل الباحث على الاعتقاد بأنه لن يُعاني من صعوبات تذكر في الحصول على معلومات عن تاريخ الفترة، وعن سيرة الأمير حسام الدين بشارة وأخباره استثناء بارز ووحيد من هذه الملاحظة. لا نجد لها تعليلاً غير ما أشرنا إليه أعلاه.

حسام الدين بشارة العاملي

(1)

لسنا نعرف تمام اسم حسام الدين بشارة معرفة تطمئن إليها النفس، لكننا نعرف أنه كان أميراً في جيش صلاح الدين وصاحب عسكر. ثم والياًعلى (عكّا) ثم على (بانياس). وحين توفي صلاح الدين كان هو أرفع الأمراء في (الشام) منزلة وأعلاهم مقاماً. ومن بعده غدا أميراً على (جبل عامل) قاعدته (تبنين). وجرت عليه من بعد صلاح الدين خطوب، بحيث توفي بطالاً، يعني لا إمارة له، بعيداً عن وطنه. لكن وِلده نجحوا بطريقة ما في الاستمرار بما كان عليه من الإمارة على (جبل عامل). وظلوا على هذا حتى الفتح العثماني ل (الشام). أي زهاء الثلاثة قرون ونصف. وهذه خلاصة عجّلنا بها دونما أسناد. علها تُعين القارئ على الدخول في مفاوز السيرة المعقدة لحسام الدين، وفي موقعه من تاريخ (جبل عامل). والتفاصيل والأسناد وبيان معاني ما في كلامنا من كلمات فنّية يأتي.

(2)

والمصادر المعاصرة كافة، وفي رأسها ما ذكرناه قبل قليل، على كثرة ما تذكره، لا تذكر له إلا رتبته (الأمير) ولقبه (حسام الدين) واسمه الأول (بشارة). دون أن يأتي على اسم عائلته أو عشيرته. ودون أن تنسبه نسبةما. كان يمكن أن تُعيننا اليوم معرفة نسبة أو منبته من بين الأقطار والبلدان.

ثم أنها لا تأتي على ذكره إلا بمناسبة ما يتصل بغيره. أي حيث تتقاطع سيرته مع سيرة صلاح الدين، أو سيرة أخيه الملك العادل. أو سيرة ابنه الملك الأفضل. كما أننا لم نعثر له على ترجمة مستقلة، شأن غيره من أمراء ذلك العصر. الذين لم تخلُ من ذكرهم أمهات كتب التراجم والسِّير. ولا شك أن هذا التجاهل العام الشامل لا علاقة له بضآلة مكانته. فقد أشرنا قبل قليل إلى التنويه بمكانته العالية بين أقرانه من أمراء صلاح الدين. وسنعود إلى ذلك مع ذكر سنده. ثم لا شك أيضاً أن ذلك التجاهل نفسه ليس بدون سبب. وهذه الملاحظة بوجهيها تحمل المتأمّل على الظن ظناً قوياً يتاخم اليقين، بأن السبب يتصل بالكوابح التي كانت تسبب دائماً سبباً قوياً عند أولئك المؤلفين. يحدد لهم درجة الاهتمام التي يمنحونها لمن يترجمون لهم.

(3)

لكن المصادر العاملية تقول للأمير بشارة اسماً أكثر بسطاً ودقة، وأيضاً أكثر إيحاءً. هو حسام الدين بشارة بن أسد بن عامر بن مهلهل بن سليمان بن أحمد بن سلامة العاملي) (محسن الأمين: خطط جبل عامل/ 132 ومحمد تقي الفقيه: جبل عامل في التاريخ/ 73). وكلاهما ينقل بالواسطة عن تاريخ ابن فتحون. وهو تاريخ مفقود من أسف. لا نعرف عنه ولا عن مؤلفه ما يُذكر. لكن النقولات العديدة والدقيقة المتوفرة عنه تشهد بأنه كتاب ثمين غني بالمعلومات، موضوع على تاريخ (جبل عامل). مما يبعث على الترجيح بأن مصنفه ابن فتحون عاملي.

من الواضح أن للاسم، اسم الأمير بشارة، دلالته. من حيث أنه اسم عربي محض. فهذا الأمير يبدو من الثابت من اسمه على الأقل طائراً في غير سربه، بين حشد الأسماء التركية والكردية لأمراء صلاح الدين. من مثل:

جُندر، كرجي، سنقر، إياز، يازكوج، جهاركس، سياروخ، قراقوش . . .الخ. أما إذا أخذنا بتمام اسمه، كما نُقل عن تاريخ ابن فتحون، وهو المصدر الوحيد المحلي والأجدر بالاعتبار، فإن الأمر يغدو أوضح.

المهم، أن هذه الملاحظة تقوّي ما ذهب إليه ذانك المصدران العامليان، القائلان إن الأمير حسام الدين بشارة عاملي. وتُضيق من فسحة الاحتمالات عن أصله ومنبته، إلى حد حصرها ب (جبل عامل) أو بجواره على أبعد تقدير.

(4)

ما يزيد الأمر وضوحاً بالنسية إلينا، أن نعرف أن جيش صلاح الدين كان في الحقيقة تجمعاً، وإن شئت كلمة أكثر قرباً من اللغة العسكرية قلت تحالفاً، لعدد كبير من الجيوش القادة من مختلف الأنحاء: أكراد من (ديار بكر) وشمال (العراق) و (الشام) وأتراك من (آسيا الوسطى). ومن هناك جاء ذلك الحشد من الأسماءالكردية والتركية بين أمرائه. في مقابل الغياب التام للأسماء العربية، مع استثناء فريد هم اسم حسام الدين بشارة. كما كان يحدث أن يلتحق بالجيش، ذي السمعة الطيبة في ميدان القتال، بدو من (سيناء) أو غيرها دون أمير طمعاً في الحصول على عوائد النهب. وكان كل جيش تابع لأميره، لا يتلقى الأوامر إلا منه. كما كان ينسب إليه، وينظّم أثناء الاستعداد للقتال تبعاً لهذه الصفة، فيُقال: عسكر فلان.

من هنا فإن لقب (أمير) كان لقباً ذا صفة عسكرية. يكتسبها صاحبها لوجود عسكر له ضمن جيش صلاح الدين. ومن هنا اكتسب حسام الدين بشارة لقبه (الأمير). وعليى كل حال، فإن ذكر عسكره (عسكر بشارة) كثير جداً في نصوص العصر، في سياق وصف الأعمال القتالية لجيش صلاح الدين ضد الصليبيين. (مثلاً: النوادر/ 147 والفيح القسّي/ 442).

ومما يجدر بنا ذكره هنا، أن العماد الأصفهاني في المصدر الثاني أشار إشارة ذات معنى كبير خصّ بها عسكر بشارة دون سواه، وهو يصف تشكيل جيش صلاح الدين وهويتقدم للقتال حول (بانياس) سنة 586ه/ 1190م، حيث قال: (. . .والأمير بشارة صاحب بانياس، وهو الذي لا يرجو منازلته إلا من فيه الباس). مما يدل دلالة لا لبس فيها على الطيّب الذي اكتسبه بشارة وعسكره في الأعمال القتالية المستمرة.

ثم إنه كان من سياسة صلاح الدين أن يولي على المناطق التي لا تقع تحت سلطته أو سلطة أخيه أو أحد أبنائه المباشرة، مسؤولين محليين من ذوي المكانة بين قومهم. ليكونوا بمثابة رابط بين السلطة المركزيو وأهل منطقتهم. يُمنحون لقب أمير أو مقّدم (القلقشندي: صبح الأعشى: 3/ 211 والنوادر السلطتني/ 101).

فهذه قواعد نظام العسكر والإدارة في ذلك الأوان، ندلي بها لتساعدنا على فهم المغزى الخبيء في المعلومات المتناثرة المتوفرة عن حسام الديم وموقعه بوصفه أحد كبار رجال إدارته. وبوصفه أميراً على (جبل عامل).

(5)

إن أول ذكر لحسام الدين بشارة، بقدر ما أوصلنا إليه التنقيب، يعود إلى يوم الجمعة 8 جمادى الآخرة 582ه/ 27أيلول 1186م. أي قبل سنة تقريباً من وقعة (حطين). حيث صلاح الدين سيّره من (دمشق) إلى (حلب) في خدمة ابنة الملك الظاهر. أي ضابطاً على طابور حراسة أو حرس شرف كما نقول اليوم. (وسيّر في خدمته شحنة حسام الدين بشارة) (النوادر السلطانية/ 73). ومن الغني عن البيان أن ضابطاً يُكلف بمثل تلك المهمة لهو ضابط صغير، ليس له مكانة خاصة يؤيد ذلك أن ابن شداد لم يلقبه ب (الأمير) في النص المقتبس أعلاه.

ولقد عمدنا إلى ذكر التاريخ الدقيق لهذه الواقعة البسيطة، مع مقارنته بتاريخ وقع (حطين)، لكي تساعد القارئ الحصيف، الذي غادر ما سردناه من مراحل الاحتلال الثلاث ل (جبل عامل)، وغادر أيضاً ما قلناه في الفقرة السابقة، على أن يسبقنا بالتأمل. وعلى أن يصل عن طريق معلومتين إلى مجهول. هو أنه في الوقت الذي كان فيه (جبل عامل) يرزح تحت الاحتلال الصليبي، كان فريق من أهله قد بدأ ينظم نفسه في جيش صلاح الدين ، تحت قيادة حسام الدين بشارة. وبهذه النتيجة نبدأ إلقاء الضوء على بدايات صعود نجم حسام الدين. كما أنن نُنير نقطة معتمة تماماً من تاريخ (جبل عامل).

من المرجّح، استناداً إلى ما بأيدينا من مُعطيات، أن الأمير حسام الدين وعسكره، اشتركوا في معركة (حطين) يوم 24 ربيع الاول 583ه/ 2تموز 1187م. والظاهر أن نجمه بدأ يرتفع في سلسلة المعارك والفتوحات المتوالية التي كانت (حطين) فاتحتها. ذلك أننا لا يمكن أن نتصور سبيلاً آخر لارتفاع الشأن واكتساب المكانة في زمن الحرب لشخص عسكري إلا البروز وإثبات الكفاءة في ميدان القتال. وهذا واضح.

يؤيد ذلك تأييداً قوياً عبارة الاصفهاني التي سبق اقتباسها قبل قليل حيث وصف الأمير بشارة وعسكره بأنه (الذي لا يرجو منازلته إلا من فيه الباس). التي تدل دلالة لا لبس فيها على انطباع قوي عنه وعنهم، بأنهم ليسوا ممن تسهل منازلتهم في ميدان القتال. ومن الضروري هنا التذكير بأن هذا الكلام قيل بمناسبة اشتراك الأمير حسام الدين وعسكرهفي التشكيلات العسكرية أمام (عكا) خلال شهر رمضان 586ه/ تشرين الأول 1190م. أي بعد زهاء الثلاث سنوات من (حطين). وبعد زهاء الأربع سنوات من ترءسه طابور الحراسة المكلف بمرافقة الملك الظاهر ابن صلاح الدين من (دمشق) إلى (حلب) حيث كان يومذاك مجرد ضابط صغير. وبنتيجة هذه المقارنات التارخية الثابتة يمكننا أن نخرج بنتيجة واضحة. هي أن الأمير حسام الدين

ارتفع من ضابط صغير إلى (أمير) وقائد تشكيل أساسي ومرهوب الجانب في جيش صلاح الدين خلال مدة لا تزيد على الأربع سنوات.

في أوائل العام 585ه/ أوائل شباط 1189م ولّاه صلاح الدين على (عكّا)، بعد أن عدل عن هدمها وقرر تحصينها. وفي هذا السبيل استدعى الأير بهاء الدين قراقوش من (القاهرة)، حيث كان مسؤولاً عن تدعيم أسوارها. (الفيح القسّي / 276 والنجوم الزاهرة: 6/ 109 والنوادر السلطانية/ 96).

خلال المدة الواقعة بين الخبرين كانت وقعة (حطين) قد حصلت، وأصيب الصليبيون في الصميم. وغدا جيش صلاح الدين القوة العسكرية الأقوى في المنطقة. ونفهم من اختيار الأمير حسام الدين للولاية على (عكا)، التي كان الصليبيون يعملون كل ما في وسعهم لاستعادتها، أنه صار محل اعتماد في المهام العسكرية الخطيرة. وأن ولايته على (عكا) حصلت في ظل أراجيف بأن الصيبيين يُعدون لحملة كبرى، ثأراً لهزيمتهم الكارثة في (حطين). وكانت القيادة الإسلامية تعرف جيداً حاجتهم الماسة إلى مينائها الواسع والعميق. وربما لأجل ذلك عدل صلاح الدين عن هدمها ومال إلى تحصينها.لن هدم المدينة لن يمنع الغزاة من استعمال مينائها في إنزال الجنود والتعزيزات. بل ويمكن القول، بالإضافة إلى ذلك، إن اختياره كان اختياراً لعسكره. وإن هذا الاختيار كان يأخذ بعين الاعتبار أنه قائد (أمير) العسكر المحلي. ومن المعلوم مما فات، أنه في هذا التاريخ كانت المنطقة الممتدة من (عكا) إلى (صيدا) قد غدت محررة. بما في ذلك الأعالي الشرقية التي منها (جبل عامل). ولم يبقَ بيد الصليبيين منه سوى حاضرته الساحلية (صور).

في شهر رمضان 586ه تشرين الأول 1190م كان قد غدا والياً على (بانياس)، (صاحب بانياس) (الفيح القسّي / 442 والمنوادر السلطانية / 147). والظاهر أن إعفاءه من إمارة (عكا)، التي عادت فسقطت بيد

الصليبيين في السنة التالية لولايته عليها، يتصل باضطراب أمرها. بعد أن صحّت الأراجيف. وبدأ البحر يقذف بأعداد كبيرة من المقاتلين القادمين من (فرنسة)و (إنكلترة)، فضلاً عن وصول فلول الحملة الألمانية التي قادها فريدريك المعروفة في الترتيب التقليدي للحملات الصليبية بالحملة الثالثة. بالإضافة إلى التجمع الصليبي المحلي. كل أولئك جمعهم نفير الثأر لهزيمة (حطين) حول (عكّا) براً وبحراً. وسقطت المدينة بعد حصار طويل.

يمكننا أن نعتبر التاريخ المذكور أعلاه، أي عام 586ه/ 1190م، بداية إمارة الأمير حسام الدين بشارة على (جبل عامل). ويبدو أنه على الرغم من أن صفته الرسمية كانت (صاحب بانياس)، كما عرفنا، فإنه كان يتخذ من قلعة (تبنين) مركزاً لعملياته العسكرية. ففي الأوقات التي كانت تهدا فيها الجبهات. كان مكلفاً باتضييق على (صور)، وأميراً على (العسكر المرصد لحفظ البلاد من ذلك الطرف) (النوادر السلطانية / 210). ولقد علمنا مما فات أن الصليبيين قد بنوا قلعة (تبنين) للتضييق على (صور) عندما كانت ما تزال بيد المسلمين وها نحن نرى الآن الأدوار وقد انقلبت. وغدت (تبنين)، بإدارة الأمير حسام الدين وهمة عسكره العاملي، تُضيق على (صور) المحتلة ونطاقها. وتتولى حراسة حدود البلاد الإسلامية من جانبها.

عام وفاة صلاح الدين (589ه / 1193م) كان الأمير بشارة قد بلغ أوج عزّه. ففي ذلك التاريخ استحق من ابن شداد، الذي عرفناه أحد مؤرخي صلاح الدين، وصف (المقدم على هؤلاء). يعني الأمراء الذي حضروا المجلس الذي عقده الملك الأفضل، ابن صلاح الدين الأكبر وولي عهده على (الشام)، لتحليفهم على الإخلاصله، بينما كان والده في طور الاحتضار. وكان منهم صاحب (شيزر) وصاحب (بيروت) وصاحب (صهيون). إلى عدد جم من الأمراء. (وشذّ منهم غير معروف) أي مَن ليس له كبير شأن. (النوادر السلطانية / 245).

عام 594ه / 1195م قصد الافرنج قلعة (تبنين) (وكانت بيد حساد الدين بشارة فنازلوها بفارسهم وراجلهم وأحدقوا بها وضايقوها) (ابن واصل: مفرج الكروب: 3/ 75) (وقاتلو من به. وجدّوا في القتال. ونقبوه من حهاته (الكامل: 12/ 128). ولكن حماة القلعة (أصرّوا على الامتناع. وقاتلوا قتال من يحمي نفسه فحموها) (المصدر نفسه).

وجدير بالذكر أن ابن الأثير لا يأتي على ذكر الأمير حسام الدين في هذه الوقعة. بل يفعل كل ما في وسعه لينسب الفضل في صمود القلعة الملك العزيز بن صلاح الدين، كما هو ديدنه دائماً. وفي المقابل فإنه يحاول أن يودع في ذهن القارئ ، أن المدافعين عن القلعة كانوا خائري العزيمة، يبحثون عن أي وسيلة للاستسلام تحفظ عليهم حياتهم. وهو، على كل حال، المؤرخ الوحيد، من بين كل مؤرخي الفترة ، الذي لم يذكر الأمير حسام الدين إطلاقاً في كتابه. وليحتفظ القارئ بهذه الملاحظة في ذهنه، لحاجتنا إليها فيما يلي.

من بعد ظل الأمير بشارة على ولايته. وإن كان قد نقل قاعدته من (بانياس) إلى (تبني) أي إلى قلب (جبل عامل) (مفرج الكروب: 3/ 75).و ولهذا التحول دلالته غير الخفية. فمن المعلوم أن (بانياس) تقع على أطراف (جبل عامل) الجنوبية. ومن هنا قيمتها الاستراتيجية. ومن هنا، فيما يبدو كان حسام الدين يتخذها قاعدة له، أما الآن، وبعد أن أصبح الخطر الأكبر عليه خطراً داخلياً، كما سنعرف بعد قليل، فإنه تحول إلى قلب (جبل عامل)، وإلى قلب الكثافة لاسكانية العاملية وهو ارتكاس طبيعي، وحركة تكتيكية مفهومة جداً بالنظر إلى الأوضاع السياسية التي اضطرب فيها من بعد صلاح الدين. تؤيد أيضاً وأيضاً ما ذهبنا إليه فيما فات عن هويته وانتمائه.

أما ما أشرنا إليه من أوضاع سياسية، فهو يعني ما جد بعد وفاة صلاح الدين. مما كان له أبلغ الأثر على ما بقي منسيرة الأمير حسام الدين.

بتاريخ 27صفر 589/ 5 آذار 1193م توفي صلاح الدين في (دمشق) بعد أن أوصى لابنه البكر الملك الأفضل علي بالسلطنة من يعده. على أن يكون لكل من بعض أبنائه واخوته حصته من التركة الهائلة. ومع ذلك فإن حرب الوراثة سرعان ما نشبت بينهم، وأدت إلى انفراط الوحدة التي يعود إليها الفضل في الانجازات العظيمة التي حصلت على يد مؤسس البيت، وقام عليها مجده. وإذا كانت أعمال صلاح الدين ضد الصليبيين قدوجهت ضربة قاصمة إلى وجودهم في المنطقة، فإن النزاعات المستمرة التي نشبت بين أبناء بيته من بعده، قد منحتهم فرصة جديدة ليستمروا من بعده ما يزيد قليلاً عن القرن من الزمان. وكان القسط الأكبر من النزاع قد وقع أول ما وقع بين أبناء صلاخ الدين الثلاثة الأفضل والعزيز والظاهر وأخيه العادل. وكان العم المحنّك يتلاعب بأبناء أخيه الثلاثة. متخذاً جانب هذا طوراً، وجتنب ذاك آخر. حتى فاز بالنهاية بنصيب الأسد.

بالنسبة لحسام الدين في هذا المعترك. فإنه ظل متخذاً جانب الملك الأفضل ووفياً لقسمه له.وحتى بعد بدء ظهور إمارات تقدم العادل على أبناء أخيه، وأيضاً بعد أن ثبت فشل الملك الأفضل في الحكم، وانصرافه التام إلى اللهو والملذات وسوء سيرة وزيره ضياء الدين بن الأثير أخي المؤرخ، فإن حسام الدين ثبت على وفائه لصاحبه. رافضاً طلب الملك العادل بأن يكون معه (مفرج الكروب: 3/ 117). بل واشترك بعسكره في حصار (دمشق) وبها الملك العادل سنة 595/ 1198م (النجوم الزاهرة: 6/ 128). وفي مستهل سنة 597/ 1200م وقعت (المصلحة)، أي المكيدة، على حسام الدين بعد أن دخل العادل (دمشق) متحالفاً مع المعظم مقابل أخويه الأفضل والظاهر. وما أن استتب أمر (دمشق) للعادل حتى (مضى المعظم وشركس وقراجا فحاصروا بانياس، وبها حسام الدين بشارة. فقاتل وقُتل ولده وأخرجوه من البلاد وتسلمها شركس) (مرآة الزمان/ 8/ 479). يعني الأمير جهاركس فخر الدين الصلاحي (أكبر من بقي من امرأة صلاح الدين)

(النعيمي: الدارس: 1/ 496) الذي كان استرضاءه بهذه الوسيلة من أغراض المكيدة على حسام الدين. ف (أعطاه العادل نيابة بانياس والشقيف وتبنين وهونين) (نفسه)، يعني (جبل عامل) بأكمله.

بتاريخ 26 ربيع الآخر 598/ 25 كانون الأول 1201م، أي بعد زهاء السنة على إخراجه من الإمارة، توفي الأمير حسام الدين (الذليل على الروضتين/ 31). وليس لدينا أي معلومات عن ملابسات وفاته. لكن الذهبي (ت: 748/ 1347م) في (تاريخ الإسلام: حوادث ووفيات 591 – 600 / 341) يقول : (بشارة، الأمير حسام الدين، أمير بانياس، توفي فيها) أي في (بانياس). وهذا يتنافى مع قول ابن الجوزي (أخرجوه من بلاد). وليس عندنا تفسير لذلك. وإن كنا نرجّح قول الأخير.

هو ذاك كل ما نعرفه معرفة ثابتة عن الأمير حسام الدين بشارة. ومن مُجمل ما اجتمع لدينا يمكننا أن نخرج بالنتائج التالية:

- **أولاً**: إنه برز من ضابط صغير يكلف بمهما ت بسيطة إلى أمير، ثم إلى أعلى أمراء صلاح الدين شأناً، بفضل مشاركته الفعّالة في أعمال الجهاد ضد الصليبيين. إنه واحد من أولئك المقاتلين الذين يبرزون بأدائهم الممتاز في الحروب المصيرية. ومن هناك يتخذون سبيلهم إلى موقع سياسي. ولهذا أمثال لا تُحصى.
- **ثانياً**: حقاً إن ما علّقناه من سيرته يختص به وحده، بوصفه بطلاً من أبطال تلك الأيام اعصيبة والمجيدة، ثم بوصفه والياً على مدينة، ثم على منطقة واسعة ذات قيمة استراتيجية. وأخيراً بوصفه قائداً ذا أثر في تقرير أمور السلطة العليا في (الشام). لكن علينا هنا أن لا ننسى أننا نقرأ تاريخاً رسمياً ـ سُلطوياً، يغيّب في الكبار من وراءهم. ولقد كنا وصفنا تركيبة جيش صلاح الدين. وقلنا إنه كان في الحقيقة تجمعاً أو تحالفاً لجيوش عدة. كل منها جاء وراء أمير. وعلى كل حالعبارة (عسكر بشارة) تتردد كثيراً في المصادر

المعاصرة إذن، فمن هنا نعرف أن ما برر فيه بشارة كان في جانب كبير وأساسي منه تبريزاً لعسكره.

- **ثالثاً**: من اليسير أن نلاحظ أن ميدان سيرته، مقاتلاً وحاكماً، منذ بدء التحرير، كان محصوراً في (جبل عامل) وجواره، ولم يبتعد إلى أكثر من (عكّا). أما الولاية على (بانياس) فقد كانت بالتأكيد تشمل الجبل. وهذه الملاحظات بمجملها ذات مغزى ولا شك. تتركنا على شبه اليقين من أن الرجل عاملي، كما تقول الروايات المحلية. وكذلك عسكره الذي خاض به ومعه الحروب ضد الصليبيين. كل ذلك مضافاً إلى ما كنا قد استفدناه من اسمه العربي المحض، وما قدمنا الكلام فيه عن سياسة صلاح الدين.هذه كلها تتقاطع عند نقطة واحدة، هي أن الرجل وعسكره جميعاً كانوا من أهل (جبل عامل).

(7)

وعلى الرغم من كل ما جرى على الأمير بشارة، فقد نجح أخلافه في تاريخ ما وبطريقة ما في استعادة القسم الأكبر من إرث أبيهم في الإمارة. وكانت إمارتهم تضم:

- جبل (هونين) أو ناحية (هونين). وقاعدتها (بنت جبل).
- جبل أو ناحية (تبنين). وقاعدتها (تبنين).
- ساحل (قانا(وقاعدتها (قانا).
- ساحل (معركة) وقاعدتها (صور). (خطط جبل عامل/ 131).
- أي أنها كانت تشمل القسم الأكبر من (جبل عامل). وكذلك نجحوا في الاحتفاظ بإمارتهم طيلة العهد المملوكي، أي ثلاثة قرون ونيف (خطط الشام: 2/ 191 التعليق (تاريخ ابن طوق) حواذث 17/ 3/ 891، بدائع

الزهور: 3/ 231، الضوء اللامع: 3/ 138، وغيرها كثير). لكن التاريخ طوى ذكرهم من بعد الفتح العثماني ل (الشام) (922: 1516م) فلم نعد نسمع لهم حسّاً ، أو نعرف منهم أحداً. وربما قاتلوا في معركة مرج دابق مع المماليك، وأطاحت بهم الهزيمة الساحقة فيمن أطاحت به. وربما قضى عليهم السلطان سليم الأول في مَن قضى عليه. وهو الذي جاء إلى السلطة رافعاً شعار القضاء على القوى الشيعية في مملكته وفي المنطقة (للتفصيل مراجعة كتابنا: الهجرة العاملية إلى إيران . . ./ 33/ 34).

(8)

أعتقد أن القارئ اللبيب، الذي رافقنا في كل ما سلف، قد أصبح الآن جاهزاً لتقويم موقع حسام الدين بشارة من تاريخ (جبل عامل))، خصوصاً التاريخ السياسي.

حق أن الرجل كان واحداً من جملة الاقطاعيين العسكريين، الذين حفل بهم ذلك الزمان، ثم ما بعده بزمن طويل. لكن خصوصيته، من الجهة الأخرة، تستدعي تقويمه تقويماً خاصاً به. يأخذ بعين الاعتبار خصوصية التاريخ العاملي. المسألة إذن نسبية. والأشياء قد تأخذ معناها من ذاتها وذاتيتها. وليس دائماً من التصنيفات والقواعدالعامة.

فلقد صار معلوماً مما فات، أن (جبل عامل) كان، من الوجهة السكانية، تجمعاً ظرفياً لمن أجبرتهم الحرب على ترك أوطانهم واللجوء إليه. وأن هؤلاء النازحين ما إن استقر بهم المقام في منزلهم الجديد، حتى لحق بهم الاحتلال الصليبي وفرض سلطانه عليهم. هكذا، فعندما وُلي بشارة على الجبل كان أول سلطة محلية فيه.

نشير الآن إلى أن (جبل عامل) ظل يُعرف أيضاً، حتى وقت قريب جداً، باسم آخر هو (بلاد بشارة). نسبة إلى حسام الدين بشارة نفسه. وهذا

الاسم الأخير كان الأكثر دوراناً على ألسنة الناس. في حين احتفظت الأدبيات المحلية بالاسم التاريخي (جبل عامل)، وهكذا علينا أن نضع كلاً من الاسمين في مستواه. سواءٌ من حيث الوسط الاجتماعي، أم من حيث البنية الفكرية التي ينتمي إليها أو يشيع فيها. فنادراً ما نجد اسم (بلاد الشام) في الأدبيات. وبالمقابل فإننا لا نسمع اسم (جبل عامل) في اللغة اليومية. بل كان الاسم المتداول على الألسن (بلاد البشارة). حتى جرى استيعاب الناس للتقسيمات الإدارية. بعد وضع الحدود السياسية لدولة (لبنان). فصار الاسم الأكثر دوراناً (الجنوب) أو (لبنان الجنوبي). وهو الاسم الرسمي بينما ظلت الأدبيات، خصوصاً التاريخية منها، مخلصة للاسم الأكثر عراقة والأثير عند المثقفين (جبل عامل). لما يوحيه من أمجاد التاريخ الثقافي.

المغزى الكبير من هذا التبدّل يكمن في الانتقال من (جبل عامل) إلى (بلاد بشارة). الذي لا ريب أنه حصل في ظل متغيرين أساسيين:

- **أولهما**: المتغيّر السكاني، الذي انتهى إلى إعمار أرضه بالنازحين إليه. وقد غدا الآن متغيّراً تاريخياً.
- **ثانيهما**: المتغيّر السياسي، المتمثّل في أول سلطة سياسية محلية وطنية قامت على أرضه.

بالنسبة للناس العاديين، فإن اسم (جبل عامل) غدا اسماً مقطوعاً. فقد كل مبرراته. بعد أن خلف على الأرض قوم لا علاقة لهم إطلاقاً بقلبية عاملة. وبقيام سلطة سياسية من بشارة ثم بنيه من بعده. وهكذا انتقل الناس بكل بساطة إلى الاسم الأصدق تمثيلاً للواقع السياسي- السكاني الجديد. فانتزعوا الاسم من أكثر العناوين وضوحاً. أي من السلطة السياسية الأولى في البلاد.

علينا أن نختم هذا التحليل بالقول، إننا إذا تأملنا في هذا التبدل، معتبرين، أولاً أن أسماء الأماكن والبقاع والمعالم الجغرافية عموماً هي من أكثر التسميات ثباتاً. ولا تتبدّل، إن تبدلت، إلا بتأثير عامل قوي. وثانياً، أن

بيوتاً إقطاعية عدة قد تداولت الحكم في (جبل عامل) منذ أن تولاه الأمير بشارة. ومع ذلك فإن اسمه هو الوحيد الذي التصق به ذلك الالتصلق الثابت الذي وصفناه. إذا تأملنا في كل ذلك، فإننا نضع أنفسنا في الموقع المُشرف على المحرّك الجماهيري، الذي كان البادئ في عملية التبدّل تلك. وليس هو إلا إدراك الناس لمعنى ومغزى الخطوة التقدمية بالنسبة إليهم وإلى وضعهم، إذ قامت في بلادهم أول سلطة وطنية.

إن المؤرخ المتمرّس، وكذلك كاتب السيرة الخبير، يُعرف جيداً أن الناس قد يسجلون انطباعاتهم عن الأحداث والأشخاص بطريقة لا تُفصح بسهولة عن سرّ الموقع الذي احتلته في وجدانهم. وليس عليه إلا أن يمضي في التحليل والتركيب، واضعاً نصب عينيه أن هاهنا لسرّاً. فإذا وُفّق إلى تركيب كافة، أو على الأقل الضروري والأساسي، من عاناصر الموضوع ـ المشكلة، تجلّى أمامه السر في أن حدثاً أو شخصاً يفوز بموقع ممتاز وغير عادي في وجدان الناس. وهذه قاعدة ذهبية في البحث، خصوصاً للباحث المؤمن بأن التاريخ هو الإنساني وليس السلطوي.

الفصل الثالث

جزّين، الأرض الحرّة

١ -الأصول السكانية ل(جزين).

٢ -(جزين) ودورها في الجهاد.

٣ -(جزين) باعثة النهضة.

(تمهيد)

كل ما قلناه حتى الآن دار على الجزء الذي ضربه الاحتلال من (جبل عال). أعني خط شمال (الجليل) وخط الساحل. وهو الجزء الأكبر والأكثر أهميّة من منظور سكاني وإنتاجي. ولم يعرض لشمال الجبل وأعاليه المتصلة ب (جبل لبنان). التي كانت تسمّى في ذلك الأوان (جبال صيدا) التي سيكون لها في مستقبل الأيام شأن عظيم في التاريخ الثقافي والسياسي ل (جبل عامل).

ولقد ظلّت (جزّين) ومنطقتها أرضاً طاهرة لم يُدنّسها احتلال مع أنها محاطة من ثلاث جهاتها بأرض محتلة. وتق على خط شمالي- جنوبي بين حصني (تيرون) و (أرنون). وهما، كما قلنا آنفاً من الحصون التي شادها الصليبيون على حدود المحتلّة. (انظر الخريطة في الصفحة السابقة). وما ذاك إلا لأنها منطقة وعرة صعبة المسالك، لا خير فيها ولا مطمع.

ولا يذهبنّ بقارئ الظن إلى أن الكلام على (جزين)، ما دامت لم يمسها احتلال، يقع خارج الموضوع الذي رسم العنوان حدوده. كلا، إن حدود البحث هي (جبل عامل) تحت الاحتلال الصليبي، كما هو معلوم. وإذا كان جزء صغير منه قد نجا من الاحتلال المباشر فليس معنى ذلك أنه كان حرّاً تماماً فضلاً عن أن (جزين) قد نالها من عسكر الاحتلال ما نالها، مما سنبسط الكلام فيه. أضف إلى ذلك، أن هذه البقعة كان لها شرف افتتاح النهضة العلمية في جبل عامل) مما سنشير إليه أيضاً. الأمر الذي حدث في فترة البحث فهذه ثلاثة أسباب مجتمعة تسوّغ لنا، بل تلزمنا، بأن نعرض لأمر (جزين) في بحثنا هذا.

1–الأُصول السكانيّة ل (جزين)

(1)

ما من سبب خاص يدعونا إلى البحث عم الأصول السكانية ل (جزين) ومنطقتها. بل شأنها في هذا شأن (جبل عامل) عموماً وما حدث فيه من طفرة سكانية. على أثر مذبحة (القدس) الرهيبة، والنزوح الكثيف لأهل (طبرية) وما والاها إلى الجبل المجاور. كما أشرنا سابقاً وكما فصّلناه في الفصل المخصص ل (جبل عامل) في كتابنا (التأسيس لتاريخ شيعة سورية ولبنان).

لكن نزوح قسم من أولئك النازحين تلك المنطقة بالذات، وهي تلك الوعرة الجدباء، لا يمكن أنيكون قد حصل دون سبب خاص. مع أن في غيرها متّسع وأقرب منالاً. فمن المعلوم أن الحركة الصليبية تقودها حاجتان أساسيتان هما الأمن وتحصيل أسباب العيش. وتستقر حيث يطيب العيش ويسهل. أي أن الناس لا ينزلون أرضاً بهذه المثابة إلى أن يُضطروا إلى ذلك اضطراراً. فما هو ذلك السبب الخاص الذي جعل تلك المنطقة عامرة. رغم افتقارها لأحد شرطي الاستقرار السكّاني؟؟

بالبحث عن حل لهذا المشكل، وقفنا على ما نظن أنه يُشير، وإن من بعيد، إلى ما جرى. فاضطر أولئك الناس إلى سُكنى ذلك الجدب العسر. خبيئاً في اسم لبسوه أو أُلبسوه. نجده في (نخبة الدهر لشيخ الربوة / 267) وفي (الذيل على الروضتين لأبي شامة/ 103). حيث الأول يُسمي منطقتهم (شوف الميادلة)، ويصف أهله بأنهم (رافضة). أما الثاني فيُسميهم أنفسهم ب (الميادلة).

والشُّوف هو المكان العالي المُشرف على ما حوله. والكلمة من أصل آرامي فيما يبدو. نجده حتى الآن في المحكية الدارجة في (الشام) شاف ومشتقاتها بمعنى رأى. ومناسبة الاسم والمُسمّى جلية. واسم (الشوف) ما يزال علماً على منطقة معروفة من (جبل لبنان). وكان في عصر شيخ الربوة (ت: 727ه/ 1326م) جزءاً من اسم غير مكان : (شوف العدسي) و (شوف الخيطي) و (شوف الخرّوب) فضلاً عن (شوف الميادنة). (نخبة الدهر)/ 267). ولكل من هذه الأسماء مناسبتها ولا ريب. وبعضها واضح. لكن الأمر الجامع بينها هو ما نقلناه عن معنى الشوف.

أما (الميادنة) فهي نسبة إلى مجموعة على غير قياس. تختص فيما هو جارٍ على ألسنة أهل (الشام)، بنسبة الجماعات البشرية، من عشائر وبطون ومذاهب وما إليها. ما تزال صيغتها شائعة أكثر ما يكون في (الأردن) السياسي.كما نجدها، أعني الصيغة نفسها، في اسم آخر من الأسماء التاريخية للشيعة في (جبل عامل) أكثر شُهرة، هو (المتاولة). والاسم نفسه نجده في (حلب) علماً على شيعتها. والصيغة أيضاً في أسماء بطون الشيعة العلويين في (سورية). ومنه (المتاورة) الذي يدهشنا بشبهة ب(المتاولة). وأنني أسمح لنفسي بأن أقول بالمناسبة، إنه لا معنى لتفسير كلمة (متاولة) بأنها منحوتة من قولهم (مُت ولياً لعلي). وهو تفسير شائع، ولكنه مُرتجل. قاله مَن قاله دون تثبّت.

بالعودة إلى كلمة (ميادنة).

يبدو أن هذه الكلمة من الأسماء التاريخية، التي أطلقت على بعض الشيعة في (الشام)، لمناسبة جغرافية أو غيرها. من مثل (الظنّيين) على الذين كانوا ينزلون شمال جبل (لبنان) في المنطقة المعروفة اليوم ب(الضنية). الذي يُقال إنه تحريف ل(الظنّيين). و(الجُرديين) على شيعة (كسروان)، نسبةً إلى (الجُرد). و(المتاولة) على شيعة (جبل عامل) و(حلب). وأخيراً (الميادنة).

والتفسير الوحيد الذي يبدو لنا، أنها أعني (المياذنة) نسبة إلى (سهل المأذنة). وهو سهل مشهور بخصوبته. يستقي من نبع يحمل الاسم نفسه قريب من مدينة (النبطية) المعروفة في (جبل عامل). فإذا صحّ ذلك، دلّ على أن سكّان (جزّين) هم أصلاً من عُمّار ذلك السهل. نزلوه بعد نزوحهم من مواطنهم الأصلية. ثم نزحوا عنه في وقت غير بعيد، لسبب أو آخر مما يتصل بالأوضاع السكتنية غير المستقرة التي سادت إبان الحروب الصليبية. بشهادة أن النسبة لم تكُن قد نُسبت بعد في زمن أبي شامة (ت: 665ه/ 1261م). واحتفظوا بها في موطنهم الثاني (جزين) شأن أمثالهم من النازحين. آخذة تلك الصيغة الغربية، التي قلنا فيها ما عندنا. الأمر الذي يُقدّم لنا تفسيراً مُقنعاً وفي الغاية من الوضوح، لماذا سنراهم بعد قليل، في أوائل القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد، في تلك المنطقة الوعرة الجدباء. أي في (جزين).

2- (جزين) ودوره في الجهاد.

(تمهيد)

عرفنا مما فات أن (جزين) كانت المركز السكّاني للجزء الذي ظل حراً من (جبل عامل)، حين كان ما بقي منه تحت الاحتلال. ومع أنها تمتّعت بتلك المركزية بالنسبة لما والاها، فإننا لا نجد لها ذكراً في كل ما وصل إلينا من تسجيلات ذلك الأوان. وخصوصاً في الكتب المعنيّة بشؤون البلاد، التي نعرف أنها أكثر براءة وسلامة قصد من كتب التاريخ. وكان لنا أمل خاص بأن نجد لها ذكر عند المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) لأنه عرف (جبل عامل) معرفة جيدة ومباشرة. لكن أملنا خاب بعد أن وجدنا أنه لم يأتِ على ذكرها حتى ولا عرضاً. وفي ذلك دليل على هوان شأنها في ذلك الأوان. وسيكون على (جزين) أن تنتظر زهاء القرنين من الزمان قبل أن تصبح شيئاً مذكوراً بين البلدان. بفضل من أنجبتهم من كبار العلماء المؤسسين الذي تحلّقوا على رائد النهضة العاملية محمد بن مكي الجزيني، الأكثر شهرة بلقب الشهيد الأول (ق: 786ه/ 1384م). أولئك الذين منحوا (جبل عامل) ذلك الصيت العريض، الذي دخل به التاريخ من أوسع أبوابه.

على أنه كان ل(جزين) دورها في الجهاد ومقارعة الاحتلال. وإن يكن دوراً منكوراً. مثلما سيكون لها دورها الرائد في النهضة العلمية العاملية في (جبل عامل). وسيكون علينا فيما يلي أن نقف على ما كان من شأنها في الحالين: حال الاحتلال العام ومافيه من جهاد وسعي إلى التحرير. وحال حرّيتها الخاصة وكيف استثمرها في دورها الريادي.

(1)

إن النص الوحيد الذي يُشير، وإن بطرف، إلى ما كان من مشاركة لأهل (جزين) في الجهاد والعمل في سبيل التحرير، عثرنا عليه في (مرآة الزمان:8/ 585)لابن الجوزي (ت: 654/ 1256م) وإليك نصه:

(وفيها [سنة 614/ 1217م]وصل الفرنج إلى جزيز [كذا! وهو تصحيف. ولتُقرأ: جزين] قرية قرب شعراء [ولتُقرأ: مشغرة[لمّا عادوا من الطور. فقصد ابن أُخت الهنكري صيدا، وقال لا بدّ لي من أهل هذا الجبل. فنهاه صاحب صيدا. وقال هؤلاء رُعاة، وبلادهم وعر. فلم يقبل. وصعد خمسمائة من أبطال الفرنج إلى جزيز[كذا!] ضيعة الميادنة. فأخلاها أهلها. وجاء الفرنج فنزلوا بهل وترجّلوا عن خيولهم ليستريحو فتحدّرت عليهم الميادنة من الجبل. فأخذوا خيولهم. وقتلوا عامتهم. وأسروا ابن أخت الهنكري. وهرب من بقي منهم إلى صيدا. وكان معهم رجل يُقال له الجاسوس من المسلمين قد أسروه. فقال لهم: أنا أعرف إلى صيدا طريقاً سهلاً أوصلكم إليها. فقالوا إن فعلت أغنيناك. فسلك بهم أودية وعرة، والمسلمون خلفهم يقتلون ويأسرون. ففهموا أن الجاسوس غرّعم فقتلوه. ولم يفلت إلى صيدا سوى ثلاثة أنفس، بعد أن كانوا خمسمائة. وجاءوا إلى دمشق بالأسارى. وكان يوماً عظيماً).

في سبيل تيسير فهم هذا النص الثمين للقارئ، علينا أن نبيّن أول معنى كلمتين أساسيتين وردتا فيه. لتوقّف فهم مُجمل القصة على ذلك مع التذكير بأننا قد بيّنا قبل قليل معنى كلمة (الميادنة).

الكلمة الأولى هي (الهنكري). وهي الاسم الذي عُرف به محلياً الملك أندرو الثاني، ملك (هنغاريا)، وأحد زعيمي الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة. إذن، فمن هنا يعرف القارئ أن (الهنكري) ليست إل تحريفاً عن الهنغاري. وقد اتخذ هذا الملك من (صيدا) قاعدة له مدة إقامته القصيرة في المنطقة. ومن هنا سمّاه أبو المظفّرين الجوزي (صاحب صيدا).

أما الكلمة الثانية في (الطُّور). وهي اسم القلعة التي بناها الملك الأيوبي على (جبل الطور) المواجه ل (عكا)، ابتغاء السيطرة على إقليم (الجليل)، وفي الوقت عينه تهديد (عكّا) والتضييق عليها. حين كانت آخر ما تبقّى من مملكة (بيت المقدس) الصليبية. وربما لذلك كان بناء القلعة سبباً وذريعة لضجيج كبير أثاره في الغرب البابا أنوسنت الثالث، تحت شعار أن (جبل الطور) هو المكان الذي (شهد عظمة المسيح ومجده). داعياً إلى تجهيز حملة صليبية جديدة لإنقاذه. وقد أثار ذلك الضجيج وما تلاه الارتكاس المتوقّع لدى المسلمين. الأمر الذي منح قضية قلعة (الطور) حجماً أكبر بكثير مما تستحقه. وقد عبّر الشاعر عن هذا الجو المشحون بقوله مخاطباً الخليفة في (بغداد):

قـــل للخـــليفة لا زالـــت عســـاكره بهـــا إلى النصـــر إصـــدار وإيراد

إن الفرنـــج بحصـــن الطـــور قـــد نزلـــوا لا تغفلـــنّ فحصـــن الطـــور بغـــداد

(مرآة الزمان: 8/ 585)

بالنتيجة جرى تجهيز جملة جلها من العنغاريين والألمان. بزعامة ليوبولد السادس دوق (النمسا) وأندرو الثاني ملك (هنغاريا). ما إن استقرّ بها المقام في (الشام) حتى شرعت بالهجوم على القلعة. التي صمدت لمحاصريها مدة عشرة أشهر، دون أن يُفلحوا في الاستيلاء عليها. وقد وصف ابن الجوزي، (المصدر نفسه/ 584) دفاع المسلمين المجيد عنها. والنص الذي نعالجه الآن يبدأ من نقطة عودة الصليبيين الهنغاريين خائبين يملأ صدورهم الحنق لما انتهت إليه حملتهم من فشل ذريع.

بعد أن بيّنا ما نرى أن يلزم بيانه، نعود إلى النص، ابتغاء تحليله وكشف خبيئه.

ويؤخذ من كلماته الأولى، أن (جزين) ظلت حتى تاريخ الحادثة أي السنة 614/ 1217م، وبعد قرن ونيّف على سقوط القسم الأوفر من (جبل عامل) أرضاً طاهرة لم يمسّها احتلال، ولم تطرقها قدم محتل. والحقيقة أن تلك المحاولة لدخولها هي الوحيدة التي تذكرها المصادر المعنيّة بأخبار الفترة. مما نفهم منه أنهم لم يعودوا إلى مثلها أبداً.

ثم أن سياق الكلام بوضوح ما بعده وضوح بين خيبة الصليبيين في الاستيلاء على (قلعة الطور)، وبين قصد ابن أخت الهنكري (جزين). وذلك ربط يدل على علاقة سببية بين بين الأمرين. يفهم منه المتأمل أنه كان لأهلها، أي لأهل (جزين)، دور في الدفاع عن القلعة. الأمر الذي أغاظ الأمير الهنغاري، وجعاه يُصمم على الانتقام منهم. إذ لا نفع له ولا لبني قومه من دخول تلك المنطقة الفقيرة الصعبة المسالك. خصوصاً وأنه في ذلك الأوان كان الموقف العسكري قد سجّل تحولات جسيمة لصالح المسلمين. وبات الصليبيون في موقع الدفاعا عما بقي بأيديهم من المكاسب التاريخية، التي حصلوا عليها في الصدمة الأولى. بحيث أن الانشغال بالتمدد إلى منطقة (جزين)، التي ليس لهم منها فائدة عسكرية أو غيرها، أمر لا مبرر له على الإطلاق. ولا يُشكّل احتلالها مكسباً بأي معنى من المعاني، وعلى كل حال، فإن النص صريح في أن مقصود الأمير الهنكاري كان أهل الجبل، وليس الجبل بذاته. (لا بد لي من أهل هذا الجبل). ولذلك نهاه خاله الملك بقوله: (هؤلاء رعاة، وبلادهم وعر)، إلفاتاً إلى فقر المنطثة وجدبها وصعوبة مسالكها وإلى صلابة أهلها. مما يجعل العمليات العسكرية فيها محفوفة بالمخاطر ولا فائدة تُرجى منها.

إذن، فهذا النص يحتوي على إشارة مزدوجة ونادرة جداً، بل فريدة،

إلى ما كان لهؤلاء من أهل (جبل عامل) من دور في مقارعة الاحتلال الصليبي. أولاهما صريحة ومباشرة. هي موضوع النص الذي اقتبسناه ونُعقّب عليه الآن. كما أنها حافز المؤرخ إلى نظمه في عمله التأريخي. وفيها وصف تلك الواقعة الجليلة، التي انتصر فيها أهل (جزين) على عدوهم، بالذكاء زالشجاعة والتصميم وحُسن التخطيط. على الرغم من التباين الكبير في ميزان القوى لصالح العدو. والثانية ضمنيّة، هي بالتأكيد لم تكن من همّ المؤرخ، ولا هو رمى إلى بيانها. ونحن إنما فهمناها من تتابع الأحداث كما سجّله. أعني من فشل الصليبيين الهنغاريين في الاستيلاء على (قلعة الطور)، وعلاقته بعزم الأمير الهنغاري على الصعود إلى (جزين) والانتقام من أهلها. مما فهمنا منه دون ارتياب أنهم كانوا ذوي دور بارز في الدفاع المجيد عن القلعة، الذي خسر فيه الصليبيون (جماعة من أعيان الفرنج، منهم كنتٌ كبير) (الذيل على الروضتين/ 102ـ 103). الأمر الذي يُفسّر عناده وعدم انصياعه إلى نصائح خاله الملك. وأدّى بالتالي إلى خسارة الفرنج الهنغاريين ذلك العدد الجم من خيرة فرسانهم.

وجدير بالذكر هنا، أن ابن الجوزي، بعد أن وصف استبسال المقاتلين في الدفاع عن القلعة، ختم كلامه بالول: (وكتن في الطور أبطال المسلمين وخيار عسكر الشام) (مرآة الزمان: 8/ 584ـ 85). والصيغة وإن كانت لا تعني بالضرورة أن كل مَن كان في القلعة من العسكر يستحق أحد الوصفين. لكن يُظهر إجمالاً أن وجود تلك النخبة فيها لم يكن عفواً ولا صدفة، بل تحسّباً لما حصل. بحيث أن أولياء الأمر حشدوا فيها نخبة المقاتلين. فهذه شهادة لأولئك (الرعاة) على حد ما قاله أندرو الثاني الهنغاري، بأنهم كانوا على فقرهم وجشوبة عيشهم ممن يُعتمد عليه في الملمّات وحين البأس. وهي شهادة زكّوها هم، بما اظهروه من براعة وحُسن تخطيط.

إذا نحن ضممنا هذه النتيجة إلى ما سبق لنا أن تحدثنا فيه بأوفى ما يمكن عن سيرة الأمير العاملي حسام الدين بشارة، ودلالاتها على ما خفي من

تاريخ (جبل عامل). وخصوصاً على ما كان لأهله من دور في مناجزة المحتلين الصليبيين. – إذا نحن فعلنا ذلك، لحقّ لنا أن نتساءل: كم كتم هذا التاريخ الرسمي- السلطوي عنّا من حقائق التاريخ الحقيقي- الإنساني. وهو يهرْول لاهثاً وراء أدنى أخبار أصحاب السلطة. مُعيراً عيناً عوراء إلى كل ما يتصل بمن يرى أنهم أدنى شأناً وأهون من أن يذكرهم بما فعلوا، مهما يكن نقيّاً وجليلاً. مما كان نصب عينيه لو كانتا سويتين، أو لو كان ذهنه متحرراً من الأثقال التاريخية .

وقادراً بالتالي على أن يدرك، أن العمل التسجيلي للمؤرخ أقرب إلى الصدق، بقدر ما هو أبعد عن الانتقاء. دون أن يعني ذلك أن يكون تسجيلاً عشوائياً. بل مقوداً بحس لا غنى للمؤرخ عنه، به يتفاصل المؤرخون.

3 ـ(جزّين) باعثة النهضة

لن يتم الحديث على الجزء الذي ظلّ حراً من (جبل عامل) ومركزه السكاني (جزين) ما لم نقف، بقدر ما يقتضيه المقام، على ما كان لهذه من دور تاريخي في بعث النهضة العاملية العلمية. بوصفها، أعني (جزين) بلد مَن اتخذ المبادرة الأولى، التي بدأت مقدمات النهضة. ثم كان أن تكاملت المقدمات والمهيئات، بحيث غدت (جزين) من بعد أول مركز علمي عاملي. أنبت العديد من المراكز الأخرى، فيما يشبه التفاعل المُتسلسل. ومجموع هذه الحركة وما أنتجت هو ما نسميه النهضة. كل ذلك بدأ بمبادرة من شخص وحيد، كان أول من سلك الدرب، الذي امتلأ بالسالكين من بعده.

نُشير بذلك إلى إسماعيل بن الحُسين العودي الجزيني (ت: 580/ 1184م). أي أنه وُلد في وقت ما بُعيد بداية الاحتلال. وكان أول من شد الرحال من (جبل عامل) إلى (الحلة) يوم كانت المركز العلمي الأول للشيعة الإمامية في العالم. وبذلك جدد وأحيا الصلة التي كانت قائمة قبل الغزو الصليبي بين الشيعة في (الشام)، بالدرجة الأولى في (حلب) و (طرابلس)، وبين المراكز العلمية الشيعية في (العراق). خصوصاً في الجانب الغربي من (بغداد) أيام الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان (ت: 413/ 1022م) والسيد مرتضى علي بن الحسين (ت: 413/ 1022م) والسيد مرتضى علي بن الحسين (ت: 436: 1043م) والشيخ الطوسي محمد بن الحسن (ت: 460/ 1067م). إذن، فهو أول فقيه أنجبه (جبل عامل).

والحقيقة أن هذا الرائد هو الذي وضع الحجر الأساس لصورة وطنه كما ستبدأ في التجلي بعد زهاء القرنين من الزمان. وبهذا الاعتبار نرى فيه

رجلاً تاريخياً مهّد وأسس لمسار لم يتوقّف من بعد ريادته أبداً. حتى جاء (جزين) الأشهر الشهيد الأول محمد بن مكي الجزيني (ق: 786/ 1384م)، بطل النهضة دون منازع. وبهذا الاعتبار أيضاً نرى في (جزين) مؤسسة للنهضة. استثمرت حريتها النناجزة خير استثمار، يوم كان باقي الجبل المُلتبسة. فسار فيه دون تردد. وما هذه العُجالة إلا إشارات سريعة اقتضاها المقام. وهي في الوقت نفسه دعوة لقراءة كتابنا القادم (جبل عامل بين الشهيدين. قصة النهضة) حيث فصّلنا ما أجملناه هنا.

الفصل الرابع

صورة (جبل عامل) في المصادر المعاصرة للحركة الصليبيّة

١ ـ التأثيرات المذهبية وعلاقتها بصورة (جبل عامل)

٢ ـ مراجعة نقدية لنصوص ثلاثة عن أهل (جبل عامل) تحت الاحتلال

- النص الأول عن ابن القلانسي في (ذيل تاريخ دمشق) وتعليق الدكتور مكي عليه.
- النص الثاني عن ابن جُبير في (الرحلة)
- النص الثالث عن ابن الأثير في (الكامل في التاريخ).

(تمهيد)

إلى هنانكون قد استوفينا الكلام على (جبل عامل) تحت الاحتلال الصليبي، بالمقدار الذي تُعطينا إياه المعلومات المتوفرة في المصادر المتاحة. ما كان منه محتلاً بالفعل. ثم ما لم ينله الحتلال.

بقي جانب من الموضوع لا يقلّ أهمية عمّا فرغنا منه. هو صورة (جبل عامل) وأهليه، كما تعكسها بعض المصادر المعاصرة لفترة الاحتلال. أو الصورة نفسها كما فهمها وأذاعها بعض المؤرخين المحدثين. وهي صورة ليست تأريخية بالضرورة. إذا أخذنا في الاعتبار قصد المؤلف أو صدقه أو صحّة فهمه. ولذلك فإننا لم ندخلها في صلب ما التزمنا به، مما فرغنا منه قبل قليل. بل هي تندرج في تسجيلات وتحليلات تتراوح بين:

١ ـحدث جرى تسجيله ووصلنا مقطوعاً عن إطاره والظروف التي وقع فيها. بحيث يفهم منه القارئ غير المختص وغير العليم بمواصفات الفترة، في هذا الشأن أو ذاك، غير ما يعنيه بالفعل. ولطالما أدّى مثل ذلك القصور أو التقصير إلى نتائج بعيدة كل البعد عن الصواب.

٢ ـانطباع مُتسرّع، نظر إلى ظاهر الأمور وما بدا منها على السطح، سجّله غير كفؤ بالنسبة لدرجة اطلاعه على الحقيقة كاملة. أي أنه عرف شيئاً وغابت عنه أشياء. الأمر الذي أدى إلى إشاعة وتناقل أحكام وتصورات غير صادقة. تداولها الخلف عن السلف دون نقد أو تدقيق.

٣ ـتشويه مُتعمّد للحقيقة. ارتكب في سياق عمل تأريخي سُلطوي

نموذجي. كان همّ المؤرخ فيه محصوراً في تقديم صورة مُشرقة دائماً لذي السلطة، وفي هذا السبيل، فإنه إن عجز عن كتم حدث سلطوي مُخزٍ، لأنه أكبر وأشهر من أن يُكتم، فإنه لا يتورّع عن إلصاقه بضحية بريئة عاجزة عن الدفاع عن نفسها، بُهتاناً وافتراءً.

وما هذه القسيمة النظرية القائمة على التصور المجرّد وعلى التعميم. بل هي مُستندة إلى وقاع ثابتة. ستأتيك تباعاً في الكلام الآتي.

---

١ المتأثيرات المذهبية
وعلاقتها بصورة (جبل عامل) في المصادر

إن القارئ الذي رافقنا في هذا اكتاب وفي غيره، لحقيق بأن يعرف جيداً في التاريخ والمؤرخ السلطوي. بعد أن أعلنا يأسنا منه أكثر من مرة.

نورد هذا التنظير، مع أنه يبدو غريباً عن العنوان، لنقول إن المذهبية هي من صميم الحالة السُلطوية. ذلك أن المذهبية، إذ تغدو عقيدة رسمية، تحرّك موضوعاً برمته من المستوى الفكري التأملي إلى مستوى العصبيّة. تحريكاً واعياً ومقصوداً. ابتغاء إنشاء عصبية تحتضن السلطة. ولذلك فإن هذه تعمل كل ما وسعها لإغلاق احتمال نشوء حركة معاكسة، أي من العصبية نحو الفكروية والأمثال على ذلك لا تنحصر. لكن أبرزها وأبعدها أثراً إعلان الدولة المملوكية من جانبها بشخص مؤسسها الظاهر بيبرس، احصار المذاهب المعترف بها رسميّاً في الأربعة المعروفة. وذلك إجراء نموذجي. إنني أدعو القارئ إلى التمعن في أن ما من دولة قامت في تاريخنا إلا على قاعدة من مذهبية. من شرطها العدوانية نحو الآخر.

نقول كل هذا توصّلاً إلى ملاحظة ذات علاقة مباشرة بعنوان هذا القسم، هي أن الشأنين، السلطوي والمذهبي، يتقاطعان على عمل المؤرخ الرّسمي، ويحكمان توجّهاته وأولياته وحتى لغته. وربما يكون أثر العامل المذهبي أكثر سوءاً على عمل المؤرخ من الآخر السلطوي. لأن ذلك ينفذ إلى مستوى الحوافز الشخصية للمؤرخ، فيُفقده صفتي البراءة والحياد. وهما شرطان لا غنى ولا بديل عنهما في قبول شهادته على الحقيقة.

ولقد كنا وقفنا فيما فات على شيء مما نعالج أمره الآن. لكن وقفتنا هناك كانت كانت وصفية. أما هنا فالمعالجة تقتضي موقفاً نقديّاً. الأمر الذي يستدعي تكرار النظر في بعض ما تجاوزنا الكلام فيه.

من ذلك، بل في رأسه، الكلام على الأمير حسام الدين بشارة العاملي. وما علقناه له من سيرة جادت من الموجود. حيث رأينا أن ما عرفناه من ملابسات السيرة يدلنا دلالة لا ريب على ما كان لأهل (جبل عامل) من دور في مقارعة العدو الصليبي. من ضمن العسكر الذي تجمّع حول صلاح الدين. ثم بعد انفراط ذلك العسكر بعد وفاته، والتحاق أمرائه كل بمن معه من أهل (جبل عامل) مثابرين في جهاد محتلي أرضهم. وخصوصاً في التضييق على (صور) التي غدت بعد انهيار الدولة اللاتينية وتحرير (القدس) المركز الرئيس لقوة الاحتلال السياسية والعسكرية. إلى أن حوصرت (تبنين)، معقل الأمير حسام الدين، من قِبل الملك العادل، وقوتل وأُخرج ومذ ذاك توقف كل عمل جهادي ضد المحتلين على أرض (جبل عامل). وصار الأمر للمساومات السياسيةالبائسة. التي عرفناها وعرفنا نتائجها السيئة فيما سلف.

علينا أن نُجدد هنا ملاحظة أمر هام جداً. هو أن المفرداتالتي ركبنا منها ما تيسّر من سيرة الأمير حسام الدين، قد وردت في مصادرها تحت عنوان الحديث عن أعمال غيره. لا نستثني من هذه الملاحظة سوى خبر وفاته. أعني أنه إنما ذُكر بمناسبة تقاطع خبر يتعلّق به مع أخبار صلاح الدين أو أخيه الملك العادل أو ابنه الملك الأفضل. وذلك منذ أن كان ضابطاً صغيراً في جيش صلاح الدين. إلى أن أُخرج من (جبل عامل) بأمر من الملك العادل. مروراً بولايته على (عكا) ثم (بانياس) ثم اشتراكه في هذا المجلس أو ذاك من مجالس القرار. . . . الخ وكان من تجاهل ما يخصّه أن لم يُذكر اسمه الكامل إطلاقاً. ولم ترد أدنى إشارة إلى موطنه أو منبته.

من المفهوم أن تاريخنا الرسمي عاجز بحكم صفته السلطوية عن رؤية كل ما لا يخص السلطة القائمة. لكن ها هنا أمراً إضافياً. هو أنه حتى كتب السيرة والتراجم قد تجاهلت الأمير حسام الدين. فلم تُفرد بترجمة له. وكأن هناك نوعاً من الأجماع أو التباني بينها على التّعفيه على ذكره. وقد حصل ذلك بالفعل. بحيث أنه لولا تلك التقاطعات مع أخبار غيره، لما كان عندنا أدنى فرصة لمعرفة شيء من أخباره. وربما لم نعرفه أصلاً. مع أن كتب السيرة المعاصرة، والتي جاءت من بعدها، ومن أهمها (الوافي بالوفيات) للصفدي و (سير أعلام النبلاء) للذهبي، قد أولت عناية خاصة بسير الأمراء الذين برزوا في جهاد الصليبيين طيلة الفترة الأيوبية. وأيضاً مع أن الأير حساد الدين كان أعلى الأمراءالمحليين مقاماً في أواخر أيام صلاح الدين. وأيضاً مع أنه يُفترض أن كتب السيرة أبعد عن الذهنية السلطوية من طتب التاريخ الحدثي لأسباب واضحة.

هو ذا أمر إضافي كما قلنا. ليس يكفي لتفسيره ما نعرفه من مزاج وذهنية سلطوية حكمت توجّهات تاريخنا الرسمي. نعتقد أنه يتصل بهوبة الأمير حسام الدين ، أعني في المقام الأول هويته المذهبية. بوصفه أميراً عامليا. وهوية عسكره، بوصفه عسكراً عامليّاً. وإلا كيف نُفسّر ذلك التباني العام بين أهل النااريخ وأهل السيرة معاً على كتم أخباره وأخبارهم أو بالأحرى ربما كتم أخباره ابتغاء كتم أخبارهم. وما من حافز جامع بين أولئك، يمكن أن يسوق إلى هذا الموقف العام، إلا المائز المذهبي الذي نعرف نحن وكل عارف أنه وراء ما لا يُحصى من الأمثال.

نعتقد أيضاً أن هذه النتيجة تقودنا، ونحن نعالج صورة (جبل عامل) وأهله في المصادر المعاصرة للحروب الصليبية، إلى ما يصلح أن يكون مفتاحاً لفهم خلفية انطباعات ونصوص، قائمة في الأذهان، وموجودة في المصادر، تتقاطع عند نقطة واحدة لا تعدوها. هي ما سيكون موضوع ما بقي من هذا الفصل.

٢ مراجعة نقدية لنصوص
عن أهل (جبل عامل) تحت الاحتلال

هناك انطباع شائع. من الممكن أن نسمعه حتى من غير المختصين، أو من غير المعنيين بلموضوع عناية ما. خلاصته أن لوناً من ألوان العلاقة غير العدائية على لاأقل، وصلت أحياناً إلى حد التحالف، كان قائماً بين أهل (جبل عامل) والصليبين، إبان احتلال هؤلاء لبلادهم.

من العسير دائماً أن نُرجع مثل هذا الانطباع إلى أصل وسبب بعينه. جازمين بأن هذا السبب في انتشاره. لأن انطباعاً كهذا يكون غالباً ثمرة لعدة اسباب تقاطعت عند نقطة واحدة. تغدو مع الوقت حصيلة، يقبلها دون السؤال عن سندها، وعن مقول كل منها بالضبط. ليسأل بالتالي هل هذا الانطباع إلى ما يصحّ أن نُسميه مواده الأولية، أي الملابسات والنصوص المتصلة به. والتي تجتمع لدى المؤرخ نتيجة البحث والتنقيب في مختلف المظان.

والحقيقة أن هذه المشكلة من بين مشكلات البحث، اقتضت قراءات واسعة في كل ما وقع تحت يدنا من أدبيات عصر الحركة الصليبية، وما يتصل بها من دراسات حديثة. ابتغاء استقراء كل ما يمكن أن يكون ذا علاقة بذلك الانطباع. ومقدمة لسر عمق الحقيقة فيه. وبالنتيجة خرجنا بثلاثة نصوص. نزعم أنها كل ما في تلك الأدبيات

والدراسات مما يمكن أن يكون قد ساهم بدرجة أو بأُخرى في نشوئه. سنُثبتها وفق ترتيبها التاريخي. ثم نُعقّب عليها بما يناسب.

(1)

النص الأول عن ابن القلانسي، أبي يعلى حمزة بن أسد (ت: 555/ 1660م) في كتابه (ذيل تاريخ دمشق/ 339). حيث يتخذ عن معركة جرت قري (بانياس)، غير بعيد عن حدود (جبل عامل) الجنوبية، شمالي (الجولان). بين الإفرنج وعسكر نور الدين محمود بن زنكي. بتاريخ 13 ربيع الأول 553/ 26 نيسان 1157م. ومن الضروري لفهم النص أن نقتبس بتمامه:

(وفي يوم الأحد الخامس عشر من شهر ربيع الأول ، ورد المبشر من المعسكر المنصور برأس الماء ، بأن نصرة الدين أمير ميران ، لما انتهى إليه خبر الأفرنج الملاعين بأنهم قد أنهضوا سرية وافرة من العدد من أبطالهم (١٨٤ و) الموفورة العدد الى ناحية بانياس لتوليها وتقويتها بالسلاح والمال . فلسرع النهضة إليهم في العسكر المنصور ، وقد ذكر أن عدتهم سبعمائة فارس من أبطال الاستبارية والسرجندية والداوية ، سوى الرجالة ، فأدركهم قبل الوصول الى بانياس ، وقد خرج إليهم من كان فيها من حماتها ، فأوقع بهم ، وقد كان كمن لهم في مواضع كمناء من شجعان الأتراك ، وجالت الحرب بينهم ، واتفق اندفاع المسلمين بين أيديهم في أول المجال ، وظهر عليهم الكمناء فأنزل الله نصره على المسلمين وخذلانه على المشركين ، فتحكمت من رؤوسهم ورقابم مرهفات السيوف ، بقوارع الحمام والحتوف ، وتمكنت من أجسادهم مشرعات الرماح وصوارم السهام ، بحيث لم ينج منهم إلا القليل ممن ثبطه الأجل ، وأطار قلبه الوجل ، وصاروا بأجمعهم بين قتيل وجريح ومسلوب وأسير وطريح ، وحصل في أيدي المسلمين من خيولهم وعدد سلاحهم وكراعهم وأموالهم وقراطيسهم وأسراهم ، ورؤوس قتلاهم ، ما لا يحد كثرة.

ومحقت السيوف عامة رجالتهم من الأفرنج ، ومسلمي جبل عاملة المضافين إليهم ، وكان ذلك يوم الجمعة الثالث عشر من شهر ربيع الأول).

وابن القلانسي مؤرخ معاصر. كان مقيماً في (دمشق). بدأ حياته العملية موظفاً رسمياً، كاتباً في ديوان الرسائل. ثم أصبح في التاريخ الذي كتب فيه النص رئيساً للمدينة. وهو منصب مدني يشبه اليوم منصب المحافظ. ولا ريب أن وظيفته العالية قد قدّمت له تسهيلات جمّة لجهة الاطلاع على المعلومات والأخبار. وبالنسبة لأخبار المعارك مع الصليبيين فلا ريب أنه ليس مصدراً أولياً. أعني أنه لم يكن شاهد عيان بالنسبة لأخبار منها مما حفل به كتباه. ولكن منصبه الرفيع كان يتيح له الاطلاع على الأخبار بدقة كافية من مصادرها الشفوية أو المكتوبة. ومن هنا جاء ما اقتسبناه عنه غنياً بالتفصيلات، التي لم يلتفت إلى مغزاها المؤرخ المرحوم محمد بن علي مكي. وهو يستخدم النص في تركيب مؤشّر عام لمواقف الجماعات العربية في (لبنان) من الصراع الإسلامي- الصليبي. وبنى عليه أن الشيعة في (جبل عامل) (لم يكونوا على وفاق مع نور الدين [محمود بن زنكي] بسبب ما أصاب الشيعة على يده في حلب ودمشق وبقية المناطق السورية من اضطهتد. لذلك مالوا في هذه الفترة إلى الجانب الصليبي. فقد ذكر ابن القلانسي. . . . الخ) ثم أورد موضع الحاجة من النص المقتبس أعلاه. (لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني/ 153).

نعتقد أن صديقنا المرحوم الدكتور مكّي قد وقع في هذا الاستنتاج البعيد عن الصواب، بسبب عدم استيعابه للظروف التي عاش فيها الناس في (جبل عامل) تحت الاحتلال. وأيضاً بسبب عدم تمنّعه في تمام انص الذي استند إليه.

حق أن الشيعة إجمالاً لم يكونوا على وفاق مع نور الدين. مثلما كانوا من قبل مع أمير (دمشق) ظهير الدين طُغتكين بن بوري (497- 522/ 1103-

1128م). ومثلما كانوا من بعد مع صلاح الدين، أيام إمارة حسام الدين بشارة للسبب نفسه الذي قاله. والذي ترجع أسبابه القريب إلى الصراع السلجوقي- البويهي على (العراق). كما يمكن الكلام على أسباب بعيدة. ساهمت في تشكيل الموقف السياسي السلجوقي من التشيّع عموماً. يُذكر فيها التجربة العنيفة لأسلافهم الترك أو الهياطلة مع الإسلام، في حروب استمرت ما يزيد على القرنين. ثم أنهم عندما دخلوا أخيراً في الإسلام لم يعرفوا غير المذهب الحنفي مذهباً. بحيث يمكن القر أن هذا المذهب هو المفهوم الوحيد المقبول عندهم للإسلام. هذا فضلاً عن استعصاء التشيّع على عمليات التوفيق السلطوية، التي تمرّست بها المذاهب الأخرى. مما جعله غير مقبول من هذه الجماعات القادمة من أطراف دار الإسلام، مدفوعة بشهوة السلطة والترف.

كل ذلك حق. ولكن مَن قال إن الشيعة في (جبل عامل) في غيره كانوا في وضع يسمح لهم بالتعبير عن موقفهم السياسي الخاص. لكي يُقال إنهم (مالوا إلى الجانب الصليبي)؟ ما يعرفه أدنى الناس دراية بالظروف التي عاش فيها الإنسان في ذلك الأوان، أن الحراك والتعبير السياسي كان محصوراً بالجماعات العسكرية، في سبيل غاية واحدة هي القبض على السلطة. أما مَن سواهم من العباد، فلم يكن أمامهم إلا الخضوع لصاحب السلطة الفعلي.

أما بالنسبة للمحتلين الصليبيين خصوصاً، فقد سبق منا القول، في حديثنا على المرحلة الثانية من منراحل الاحتلال، أنهم نقلوا إلى ممتلكاتهم الجديدة في الشرق الصيّغ الاجتماعية السياسية المعمول بها في بلادهم. وفي رأس ذلك نظام القنانة. الذي كان أبرز ما في النظام الاجتماعي في (أورية) الغربية. وهو نظام يجعل من الفلاحين الذين يعيشون في القرى والمزارع أقناناً، يملكهم عملياً مالك الأرض، ويجههم في مصالحه كيف يشاء. كما ذكرنا هناك أيضاً أن قوانين مملكة (القدس) الصليبية نصّت على أن (العبيد والفلاحين والأسرى كالمواشي، يخضعون لقانون البيع والشراء. وأن للسيّد أن يفعل بهم ما يشاء).

في ظل هذا التصور المؤكد لمجمل الظروف التي عاش تحتها الإنسان في (جبل عامل)في ذلك الأوان، من الغريب جداً أن نجد مَن يقول، إنهم تصرّفوا في شأن عام تصرّفاً حراً، بدافع من ميل سياسي له أسبابه الخاصة عندهم. وكأنهم قوم أحرار، في مجتمع سياسي يحمي الحريّات.

بشيء من التمعّن في نص ابن قلانسي نص إلى تصوّر إلى بيّن لحقيقة ما جرى، مما تناوله المؤرخ الدكتور مكّي مجزوءاً أو مقطوعاً عن سياقه. وأدّى به إلى نتيجة في غاية البُعد عن الصواب. ثم بنى على تلك النتيجة الجزئية القول بوجود موقف عام لأهل (جبل عامل) مُتحالف عملياً مع الصليبيين. وذلك من قبيل أن يُبنى على الخطأ خطأ أكبر.

المعلومة الأولى: التي نخرج بها إلى التمعن في النص: أن سرية من الافرنج، عمادها سبعمائة فارس (من أبطال الاسبتارية والسرجندية- أي نُخبة أو رءوس العسكر- والداوية)، بالإضافة إلى عدد غير معلوم من الرجالة، قد خرجت من مكان ما من داخل (جبل عامل) باتجاه حصن (بانياس). الذي كان آنذاك بيد المحتلين، لاحظ هنا أنه لم يذكر (مُسلمي جبل عامل) في عناصر السرية. وهو الذي سيذكرهم بعد قليل في القتلى.

المعلومة الثانية: أن غرض تلك السرية لم يكن قتالياً، بل لوجستياً كما يُقال اللغة العسكرية. يعني لتدعيم الوضع القتالي للحصن. وذلك تحسّباً منهم فيما يبدو لعمل عسكري ضدهم من قِبل المسلمين. الذين كانوا ماضين بمهاجمة المراكز الصليبية، بقيادة نور الدين محمود بن زنكي. والنص صريح فيما نقول، حيث بيّن الغرض من بعث السرية بقوله: (لتوليها – أي ناحية بانياس- بالسلاح والمال) لاحظ أنه لم يذكر المقاتلين. لأن الحصن فيما يبدو لم يكن بحاجة إلى المزيد منهم. إذن فقد كانت تلك السرية، بما فيها من الفرسان والرجالة، عبارة عن سرية حراسة لتلك العناصر اللوجستية المراد إيصالها للحصن.

المعلومة الثاالثة: أن المسلمين كانوا يرصدون تحركات العدو. وعملوا بأمر السرية. فقطعوا الطريق عليها قُبيل وصولها إلى (بانياس). وهناك جرت معركة سريعة بين المسلمين الذين كانوا غير مُتحسبين فيما يبدو. انتهت بهزيمة منكرة للصليبيين على الرغم من النجدة التي تلقّوها من إخوانهم المُقيمين في الحصن.

إذن، فمن المحق أن بعث تلك السرية لم يكن لغرض المبادرة إلى أعمال قتالية. بل كانوا ينتقلون في أرض يعتبرون أنفسهم أصحابها ومالكيها. وهم يظنون أنهم آمنون مطمئنون. وبالتالي لمن يكن من همّهم ومما يناسب غرضهم أن يحشدوا ويلجأوا إلى تكثير عديدهم بأبناء (جبل عامل). أي أنه ما من دليل، من إشارة، تسمح للمؤرخ أن يفهم من النص، أن أولئك العامليين المساكين، الذين محقتهم سيوف إخوانهم كانوا مقاتلين. بل كل الملابسات تدل على أنهم كانوا يُنقلون إلى الحصن لأداء أعمال مدنية فيه. من جُملة عناصر إعداده لحصار طويل مثلاً. بحيث يتفرّغ من فيه لأعمال القتال والدفاع ، ونُذكر هنا بأن المؤرخ لم يذكرهم من ضمن عناصر السرية، حيث كان معنيّاً بذلك في بداية النص. هذا بالإضافة إلى إشارة هامة جداً وردت في نهايته، حيث وصف (مسلمي جبل عامل)ب(المُضافين إليهم) أي إلى الرجالة. مما نفهم منه أن أولئك كانوا يُساقون سوقاً دون اختيار. مثلهم في هذا مثل كثيرين من إخوانهم الذين كانوا يُكرهون على خدمة المحتلين. وعندما حصلت المعركة قبيل وصولهم الحصن، أطاحت الهزيمة بالجميع دون تمييز. وهذا واضح.

هكذا نرى أن المرحوم الدكتور مكّي، حين قال إن الشيعة أيام نور الدين محمود قد (مالوا إلى الصليبيين) قد بنى حكمه العام، الذي شمل جميع أهل (جبل عامل) في ذلك الأوان، على نتيجة فاسدة من واقعة وحيدة ومحصورة.

شارك فيها، أو بالأحرى كان ضحيتها، عدد محدود منهم. وهي على كل حال ليس لها أدنى علاقة بما كان يعالجه. وهذه من العبر التي تقول لنا، كم على المؤرخ أن يكون مدققاً في فهمه للنصوص، وفي ترتيب النتائج عليها.

(2)

النص الثاني عن الرحّالة الشهير ابن جُبير (ت: 614/ 1217م) في كتابه (الرحلة/ 275). وقد سبق لنا اقتباس نصّه بتمامه في الكلام على المرحلة الثانية من مراحل الاحتلال. ونذكّر الآن على نحو التخصيص بقولته: (سكانها [قرى جبل عامل] كلهم مسلمون. وهم مع الافرنج على حال ترفيه. نعوذ بالله من الفتنة. . . . وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون ما عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين، على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق). كما نذكر بأنه سجّل ملاحظاته في شهر جمادى الآخرة 579/ أيلول 1183م. أي بعد أن كان المحتلون قد ابتدأت حالة انحدارهم الطويلة. لكن الوجه الآخر لهذه الملاحظة، أن نظمهم في المنطقة كانت قد استقرت وغدت راسخة. مما بيّنا ما عرفناه منها فيما فات.

ومما يجدر بنا الملاحظة هنا أن الرحالة لم يذكر أنه رأى شيئاً من مظاهر الاحتلال المباشرة وهو يجتاز (جبل عامل)، خلافاً لملاحظاته الواضحة والمفصّلة خلال الكلام عن النقطة الحدودية التي كانت آنذاك قلعة (تبنين). وما ذاك فينا نرجّح إلا لأن عناصر الاحتلال لم يكونوا يختلطون بالسكان، الذين كانوا يعيشون في القرى والمزارع. بل كانوا يؤثرون العيش في حصونهم الداخليّة، التي كانت بمثابة مخاطر سيطرة منتشرة في مختلف أنحاء الجبل. لما تقدمه لهم من مستوى رفيع من الأمن.

يبدو أن ها هنا جملة أسباب تآورت على تشكيل رؤية ابن جُبير لعلاقة أهل (جبل عامل) بالمحتلين. ونلخصّها فيما يلي:

- **أولها**: سذاجته وضآلة معرفته بالأوضاع السياسية والاجتماعية في المنطقة الشامية. عرفنا ذلك من ملاحظاته الساذجة، ونقله قصصاً يصعب تصديقها. خصوصاً أثناء إقامته الطويلة في (دمشق).
- **ثانيها**: إمتلاء ذهنه بصور عن صنوف المظالم الاجتماعية الفظيعة التي كان الإنسان العادييعاني منها في مختلف أنحاء دار الإسلام. وقد أشار إلى ذلك إشارة واضحة في خاتمة النص المقتبس عنه.
- **ثالثها**: عبورة السربع ل (جبل عامل) بحيث أنه اجتاز م (تبنين) باتجاه (عكّا) في يوم وبعض يوم. أي أنه لم يكن يملك فرصة كافية للاتصال بالسكان، وكشف ما هو كامن وراء حالة الاذدهار والحرية الزائفة التي وصفها.

هكذا . . . . فإنه، وهو الممتلئ الذهن بصور المظالم الاجتماعية في البلاد الإسلامية، اجتاز بلداً يعرف أنه واقع تحت احتلال اجنبي. وكأنه كان يتوقّع أن يرى ما هو أسوأ. ولكنه لم يلاحظ أي مظهر من مظاهر الاحتلال. بل رأى شعباً ينصرف إلى شؤون حياته اليومية بحرية. دون أن يبدو عليه أنه يُعاني من أي شكل من أشكال القمع. ومن هنا أطلق ذلك الحكم الصارم بحق أهله، القاضي باعتبار ما هم عليه من دعة واستكانة فتنة، أي ضلالاً، مع أن الفتنة هي حالة داخلية، لا يمكن استبيانها إلا عن طريق الاطلاع على ما تكنّه النفوس. الأمر الذي لم يكن في وسع ابن جبير، أولاً بالنظر إلى استعداده الذهني، وثانياً بالنظر إلى قدرته على الاتصال بالناس اتصالاً مباشراً.

نعتقد أن اين جبير بنصه المتسرّع هذا، هوالمؤول الأول عن نشر ذلك الانطباع الذي أشرنا إليه في أول هذا القسم. والقائل إن لوناً من ألوان العلاقة غير العدائية على الأقل كان قائماً بين أهل (جبل عامل) والصليبيين إبان احتلال هؤلاء لبلادهم. ذلك أنه هو الوحيد الذي ذكر مؤدّاه ذكراً مباشراً وبعبارة فاقعة في كتابه (الرحلة). الذي انتشر من بعد انتشاراً واسعاً بين مختلف مستويات القارئين.

(3)

النص الثالث عن المؤرخ الشهير ابن الاثير في كتابه (الكامل: 12/ 482 حوادث السنة 626/ 1228م) حيث يقول:

(في هذه السنة، أول ربيع الآخر، تسلّم الفرنج لعنهم الله البيت المقّدس صلحاً. أعاده الله إلى الإسلام).

(وسبب ذلك ما ذكرناه سنة خمس وعشرين وستمائة من خروج الأنبرو، ملك الفرنج، في البحر، من داخل بلاد الفرنج إلى ساحل الشام. وكانت عساكره قد سبقته ونزلوا الساحل. وأفسدوا فيما يجاورهم من بلاد المسلمين. ومضى إليهم، وهم بمدينة صور، طائفة من المسلمين يسكنون الجبال المجاورة لمدينة صور، وأطاعو وصاروا معهم).

ومن الواضح أن قوله: (طائفة من المسلمين يسكنون الجبال المجاورة لمدينة صور) يعني أهل (جبل عامل) حصراً. وهذه هي علّة إدراجه في هذا الفصل من الكتاب، الذي نُعالج فيه صورة (جبل عامل) في المصادر المعاصرة للحركة الصليبية.

والخبر، إجمالاً، يعرض وُجهة نظر المؤرخ في المقدمات والأسباب التي انتهت بالصلح الذي عُقد في (يافا)، بين الملك الكامل بن العادل الأيوبي وفريدريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية المقدسة. وتسلم الثاني بمقتضاه (بيت المقدس) و(بيت لحم) و(الناصرة). وهي مدن ذات قدسية خاصة عند المسيحيين، لارتباطها بحياة السيد المسيح عليه السلام. فضلاً عن (تبنين وصيدا بأكملها) (العيني: عقد الجُمان/ حوادث السنة 626).

والعبارة الأخيرة. المقتبسة عن العيني، تعني فيما تعني (جبل عامل) بأكمله. وقد كان لذلك الصلح رنّة حزن عميقة في أرجاء العالم الإسلام. أثارت موجة غضب عارمة. وتجاوبت المساجد والمحافل بكلمات الخطباء وقصائد الشعراء ترثي المدينة المقدسة، التي أُعطيت رخيصة. وهي التي حررها المجاهدون بسيوفهم قبل ثلاث وأربعين سنة. وأخذ مؤذنو المسجد الأقصى يؤذنون أمام خيمة الملك الكامل، في غير وقت الأذان، في إشعار بارع بأن الأذان في الث الحرمين قد غدا تائهاً في الزمان، مثلما هو تائه في المكان.

إن القارئ العارف بالواقعة التي يدور عليها نص ابن الأثير، إذ يتمعّن في الفقرة التي عقدها لبيان أسباب ذلك الصلح المخزي، ليروعه أن يرى أن المؤرخ يخفي سببه الحقيقي. الذي قاله بالتفصيل عامة المؤرخين المعنيين بالفترة، من معاصرين ومحدثين، وسنبنيه بعد قليل. وبدلاً عن ذلك يسوق سبباً من شقّين:

- **الأول**: (خروج الأنبرو ملك الفرنج في البحر من داخل بلاد الفرنج إلى ساحل الشام). يعني فريدريك الثاني، امبراطور الدولة الرومانية نفسه. وهو سبب ولا ريب. ولكنه سبب بعيد، لا يقتضي بالضرورة إيقاع صلح. فمن المعلوم أن حملات أوروبية كثيرة التي لم تؤد إلى قتال. بل إلى صلح حصل منه الغزاة على مكاسب أكبر بكثير مما حصلوا عليه في حملات أكبر وأقوى. وذلك بالذات ما كان ينبغي على ابن الأثير أن يبين سببه. لكنه أغمضه وتجاهله.
- **الثاني**:إن (عساكر قد سبقته ونزلو الساحل، وأفسدوا فيما يجاورهم من بلاد المسلمين. ومضى إليهم وهم بمدينة صور. . .) الخ.

تعليقاً على هذا الشق الثاني نقول ملاحظتين:

- **الأولى**: وهي تتعلق بأصل الخبر كما ساقه. خصوصاً إشارته إلى أن قسماً من عسكر فريدريك، الذي سبقوه إلى نزول سواحل

(الشام). قد نزلوا مدينة (صور).

من الثابت أن جمعاً من رجال فريدريك قد سبقوه إلى (الشام) قبل وصوله هو بمدّة طويلة تزيد على السنة. لكن من المؤكد أيضاً أنأحداً من هؤلاء لم ينزل (صور). وهي المدينة التي كانت تعاني بالفعل من ازدحام خانق بالسكان. بعد أن تدفقت عليها أغلب فلول الصليبيين المغادرين للمُدن المحررة. بل إن شعبة من أولئك قد اتجهت إلى (صيدا) التي كانت أراضيها، بموجب عهد سابق، مناصفة بين المسلمين والفرنجة وسورها خراب. فطردوا المسلمين من نصيبهم وبنو سورها. كما حصّنوا قلعة البحر القائمة على جزيرة صغيرة قبالة المدينة. أولئك هم الصليبيون الفرنسيون. أما الشعبة الثانية، وكانت من الألمان، فقد شغلوا أنفسسهم بترميم حصن (تالقُرين) بجوار (عكا). ثم أعادوا بناء قلعة (قيسارية)، التي كان المسلمون قد هدموها. (الحركة الصليبية 2/ 1003). وما من أحد ذكر أو أشار أن أياً من الفريقين قد قام بأعمال قتالية. وذلك لأسباب معروفة. أهمها ما سنعرفه عن هذه الحملة المعروفة في ترتيب الحملا الصليبية بكثير من أن تُنازل المسلمين حتى في معركة محدودة. ثم ما من أحد منهم ذكر أن هذه الحملة، سواء مَن سبق قائدها أم مَن وصل معه، قد نزل مدينة (صور). مع أننا رأيناهم قد بذلزا جهداً ملجوظاً في بيان مواطن نزولها موطناً موطناً.

لذلك فإننا نعتقد جازمين أن ابن الأثر قد اختلق قصة نزول جزء من عسكر فريدريك مدينة (صور) اختلاقاً. لا لغرض إلا لكي يوظفها فيما رمى إليه من صياغة الخبر. مما سيكون استعراضه موضوع الملاحظة التالية.

- **الثانية**: وهي تتعلق بالأسلوب الذي صيغ به الخبر. وخصوصاً بما فيه من إيحاء بارتباط ما بين وصول عسكر الإمبراطور إلى ساحل (الشام)، ومضي تلك (الطائفة) من أهل (جلا عامل) إليهم وطاعتهم لهم وصيرورتهم.

معهم، وبين عقد الصلح.

هذان العنصران من الخبر سيقا معاً تحت عنوان (وسبب ذلك. . .). والواضح أن الصياغة مدلّسة. قُصد منها أن أن توحي بما لم يجرؤ المؤرخ على التصريح به. أو على قوله بالفم الملآن. لأن السبب أو الأسباب الحقيقية للصلح كانت مكشوفة. ذكرها بالتفصيل أو بآخر كل مؤرخي الفترة دون استثناء. وابن الأثير وحده هو الذي تجاهلها تماماً.

إن الجمع بين تجاهل الأسباب الحقيقية من قبله، وبين ما قاله تحت عنوان: (وسبب ذلك) مما بيّناه آنفاً، يكشف لنا مرماه ومنهجه ورؤيته لوظيفة المؤرخ والتأريخ. مما سيكون علينا أن نبيّنه. لكن علينا أن نقص أول القصة الحقيقية لما أخفاه ودلّسه.

وقصة ذلك الصلح تبدأ في النزاع الذي نشب بين أبناء الملك العادل الثلاثة: الملك الكامل والملك المعظّم والملك الأشرف. وكان المعظم أكثر الثلاثة حزماً وأشجعهم وأقواهم شكيمة. فتفتّق ذهن الملك الكامل عن أن يستعين بالامبراطور فريدريك على أخيه. وما مثل هذه السياسة بالغريبة على البيت الأيوبي. وبالفعل أرسل بمبعوث خاص إليه سنة 624/ 1226م، يعرض عليه أن يحضر ليعطيه (البيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل) (عقد الجمان / حوادث السنة 924). الأمر الذي تلقاه فريدريك بسرور. لأنه كان هو الآخر في نزاع مقيم مع بابا (روما). وإن إنجازاً كبيراً بحجم استعادة المسيحيين (القدس) على يده، سيكون له أبلغ الأثر في تعزيز وضعه تجاه خصومه الكثر وعلى رأسهم الكنيسة الكاتوليكية.

بعد أمور كثيرة يطول شرحها، ومراسلات عدة بين الملك والامبراطور طالت زهاء السنين، انطلق هذا عليى رأس قوة صغيرة باتجاه سواحل(الشام). ورسبت مراكبه في ميناء (عكا)، أوائل السنة 626:1228م. ولقد عُرفت هذه الحملة في الترتيب اتقليدي للحملات الصليبية بالحملة السادسة. لكن الؤرخ عاشور في (الحركة الصليبية 2/ 1002 ـ 1003م) يُدلي

بملاحظة ذات مغزى كبير بالنسبة لغرضنا من إيراد هذه القصة، تقول: (وإذا كانت الحملات الصليبية التي خرجت من الغرب قد فاضت بروح العداء ضد المسلمين،. والرغبة في التشفّي والانتقام منهم، فإن حملة فريدريك خلت تماماً من هذه الروح. وبدت كأنها نزهة جميلة. خرج فيها إمبراطور الغرب ليقوم بزيارة ودية لصديقه سلطان الشرق).

لكن الامبراطور القادم لاستلام جائزة مجانية أُصيب بخيبة أمل شديدة عند وصوله. ذلك أن الموقف السياسي كان قد تبدل تبدلاً أساسياً عمّا كان عليه منذ أن استدعاه الكامل. فقبل أشهر من وصوله توفي الملك المعظّم. وعلى أثر ذلك اتفق الكامل والأشرف على اقتسام بلاده. أي أن الكامل لم يُعد بحاج ة إلى مساعدة الامبراطور. بل إن تعهداته السابقة لع قد غدت الآن سبب حرج كبير له. لأنه كان يدرك تسليم (القدس) سيُثير الرأي العان في البلاد الإسلامية ضده. دون أي مكسب بالمقابل. وقد لخص الؤرخ المقريزي في كتابه (السلوك لمعرفة دول الملوك): 1/ 228) حال الكامل في هذا بقوله : (تحيّر الملك الكامل، ولم يمكنه دفعه ولا محاربته. لما كان قد تقدم بينهما من الاتفاق. فراسله ولاطفه). ولم يكن حال الامبراطور بالأقل حرجاً. فهو قد خرج من بلاده مغضوباً عليه من الكنيسة. معتمداً على وعد الكامل له بتسليم (القدس). ولذلك فإنه لم يُصلح به أمره تجاه أعدائه. فإذا هو رجع حائباً إلى الغرب فسيكون بالتأكيد في وضع لا يحسد عليه. وقد لخص المقريزي أيضاً حاله بقوله: (ما له غرض في القدس ولا في غيره. وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج). (السلوك: 1/ 230).

المهم أنه بعد مفاوضات ووساطات رضخ الكامل لتوسلات الامبراطور. وتقرر الصلح لمدة عشر سنوات. وقد بينا عناصره الأساسية فيما فات. وكانت كلها مكاسب مجانية للصليبيين. عجزوا من قبل عن تحقيق ما هو أقل منها بكثير، على الرغم من الحملات العسكرية الكبرى. وكان أبرز هاتيك المكاسب (بيت

المقدس). التي دخلوها بعد إخراج الكامل المسلمين منها، دون ضربة سيف. الأمر الذي أثار ما أشرنا إليه قبل من غضب واستنكار بالغين عند عامة المسلمين.

هذا غيض من فيض التفصيلات الكثيرة التي ذكرها مختلف مؤرخي الأوان عن ذلك الصلح وملابساته. والمتأمل يفهم من إيراد تلك الفصيلات أن الأمر كان مكشوفاً أمام كل ذي عين بصيرة. وذلك منذ أن كان مبادرة موجهة من الملك الكامل نحو الامبراطور، فتبادل الرُسل والهدايا، فحضور هذا الأخير. ثم ما أشرنا إليه من مفاوضة ووساطة. وأخيراً تسليمه ما ذكرنا من بلاد المسلمين. مما يعني أيضاً أن الملك الكامل ومن معه لم يكونوا مهتمين إطلاقاً بكتمان أمرهم. خلال السنتين اللتين كانت القضية تتحرك فيهما في مختلف مراحل صيرورتها.

وحده ابن الأثير من بين كل أولئك المؤرخين، لم يرَ شيئاً ولا طرق سمعه. مع أنه كان آنذاك مشغولاً بتصنيف كتابه (الكامل في التاريخ) أي نه كان بحكم عمله هذا معنيّاً بتتبع الأخبار ةتسجيلها في أوانها. أي أنه أيضاً ليس من المعقول أن يكون جاهلاً بحقيقة ما كان يجري. ولكننا رأيناه يخفي ذلك المسار الطوبل من الأحداث لحساب ذينك السببين الواهيين اللذين ذكرناهما قبل قليل. حيث علّقنا عليهما بالقول، إن الأول لا علاقة له بالمسار وما نتج عنه، بل معلولاً له. أما الثاني فهو محض افتراء على أهل (جبل عامل). زعم أن طائفة منهم بميلها إلى عسكر فريدريك كانت السبب الذي ألجأ الكامل إلى تقرير الصلح معه!!!

من الواضح أن ابن الأثير لم يلجأ إلى ذلك التزوير التاريخي المفضوح إلا لأنه يسعى إلى تبرئة الكامل من وزر ذلك الصلح المخزي. أو إلى إرضائه أو إرضاء أهل بيته. وتحت تأثير ما تردد من أصداء الغضب العارم الذي أثاره في حينه. وهو الذي كان على علاقة وثيقة جداً بالبيت الأيوبي وكان أخوه السيء السمعة ضياء الدين وزيراً للملك الأفضل ابن صلاح الدين في (دمشق). ولكن هذا انشغل باللهو والملذات، تاركاً شؤون الحكم كافة لوزيره. (وردّت أمور الناس إليه. وصار

الاعتماد في جميع الأحوال عليه) (ابن خلّكان: وفيات الأعيان: 2/ 158). ثم صار وزيره أيضاً في (سسميساط) بعد أن طرد من (دمشق). ثم آل أمره إلى خدمة الملك الظاهر أخي الأفضل في (حلب). حيث كان أخوه المؤرخ عز الدين مشغولاً بكتابة الجزئين الأخيرين من تاريخه (الكامل).

ثم أننا نعتقد أن ذهن ابن الأثير لم يتفتّق عن ذلك التزوير بالذات أعني تحويل الوزر على أهل (جبل عامل)، إلا لأنهم كانوا فريثاً لا يخشى بأسه ولا يُحسب له حساب. فضلاً عن أنه عاجز عن الدفاع عن نفسه. بل إنه، بحكم وضعه الثقافي المتدني حتى ذلك الأوان، كان عاجزاً عن الاطلاع على الافتراء والبهتان الذي ارتكب بحقه. كل هذا، بالإضافة إلى أنه، بسبب حالة السيطرة السياسية والثقافية ذات اللون الطائفي، فإن من غير المتوقع أن يوجد مَن ينهض للتصدي للرجل غيرة على الحقيقة. مهمت تكن بنية جلية. ومهما يكن تزييفها وتزويرها وقحاً. وهكذا كان.

والحقيقة أن الملاحظة الأخيرة لم تنقدح في الذهن، إلا بعد وبسبب مراجعة كل ما وصلت إليه اليد من كتابات المؤرخين حول هذه النقطة. خصوصاً المحدثين منهم. حيث في حجم ومكانة ابن الأثير يعمد إلى إخفاء مسار حدَثي كامل ظل عالقاً لمدة طويلة، لحساي أُكذوبة مكشوفبة. رمى منها إلى حماية أو إرضاء أهل السلطة.

خلاصة القول:

إننا بعد الاستقرار التام لكل ما سُجّل عن فترة الاحتلال الصليبي، وما كتبه المؤرخون المحدثون عليها، لم نعثر على اي ما يسوغ الانطباع المذكور عن أهل (جبل عامل). بل واكتشفنا بما لا يقبل الجدل، أن أسباب ذيوعه ترجع إلى انطباع متسرّع عنهم سجّله غير كفوء، وفهم خاطئ لنص تاريخي، وتزوير مفضوح ارتكبه مؤرخ سلطوي.

خلاصة عامة

(1)

نخلُص من ذلك كله إلى أن (جبل عامل) رزح تحت الاحتلال الصليبي، كلياً أو جزئياً، زهاء المائة وسبعين سنةهجرية. اي منذ ما بُعيد سقوط (القدس) بأيدي الافرنج سنة 493/ 1099م، حتى تحرير آخر حصن في الجبل بقي سنة 644/ 1262م.

ولقد قسمنا مدة الاحتلال إلى ثلاث مراحل. آخذين في الاعتبار أن كل مرحلة منها ذات مواصفات خاصة بها، لجهة قوّة الاحتلال وانتشاره، ولاعلاقة ذلك بالوضع الإسلامي العام. ثم لتأثير كل ذلك على التاريخ العاملي والخاص،

(2)

تبدأ المرحلة الأولى بُعيد السنة 493/ 1099م. حيث امتد الاحتلال إلى (جبل عامل) قادماً من جنوبه، أي من (وادي الأردن). وحيث المحتلون بموا قلعة (تبنين)، أول القلاع الصليبية فيه، سنة 499/ 1105م. وتستمر حتة سقوط (صور) سنة 518/ 1124م وبسقوطها غدا الاحتلال شاملاً. باستثناء شمال الجبل، الذي حاضرته بلدة (جزين)، والتي بقيت حرة. وتبدأ المرحلة الثالثة من هذه حتى السنة 664/ 1262م. حيث تم القضاء على آخر جيب من جيوب الاحتلال.

(3)

ولقد كانت المرحلة الوسطى، من بين المراحل الثلاث، الأشد قسوة على أهل (جبل عامل). حيث كان الاجتلال في حال استقرار تام. وكانت سلطته ونظمه هي السائدة والمعمول بها دون منازع. وما ذاك إلا بسبب تشتت القوى السياسية الإسلامية، وعجز قادتها، وانشغال كل منهم بحراسة مصالحه. عن طريق المسالمة والمهادنة، بل والتحالف مع العدو ذد منافس أو خصم مسلم. بحيث أنه لم يكن لأهل الجبل أي سند خارجي. في حين أ ن العدو كان يُساكنهم في أرضهم. ويفرض سلطته المباشرة من الحصون والقلاع التي شادها في مختلف أنحاء الجبل، لتكون بمثابة نُقاط سيطرة. وفي ظل القلاع هذه الشروط لم يكن في وسعهم غير الاستكانة والخضوع للمحتل. الذي فرض عليهم وضع عبيدالأرض، بحيث يملكهم عملياً مالك الأرض. ويوجههم في مصالحه كيف يشاء. خصوصاً في استثمار خيرات الأرض، بما يعود عليه هو بالنفع. وغنيٌ عن البيان، أنه في وضع كهذا فإن الإنسان العاملي كان في حالة استلاب معنوي كامل. بحيث أنه كان مقطوعاً عن كافة المصادر الثقافية المناسبة لهويته الخاصة. ومع ذلك فإننا نلاحظ أنه حافظ على ذاتيته محافظة تامة. بحيث أنه ما انجلى الاحتلال حتى رأينا (جبل عامل) جديد ينهض. امتاز بنهضة فكرية هائلة وعجيبة في آن معاً. هي تلك التي دخل بها التاريخ من أوسع أبوابه. ويعرفها إجمالاً القاصي والداني. ومع ذلك فإنه لم تجرِ حتى الآن محاولة جدية لدراستها دراسة علمية وافية. فكأن مدة الاحتلال

الطويلة كانت مجرد جملة معترضة لا معنى لها في التاريخ العاملي، لم تترك فيه أدنى أثر. مما يتركه تواصل مماثل بين غالب ومغلوب.وتلك أمارة غير خفية على القوة الهائلة التي تمتعت بها الثقافة المحلية الخاصة، فمنحتها تلك القوة لاعجيبة على الصمود.

(4)

لعكس الأسباب التي عرضناها لقعود أهل (جبل عامل) عن الجهاد، إبان المرحلة الثانية من مراحل الاحتلال، فإن المرحلتين الأولى والثالثة حفلتا بأعمال جهادية مشهودة لهم.

في المرحلة الأولى تركزت تلك الأعمال على الدفاع عن حاضرة الجبل الكبرى، أعني مدينة (صور)، من أن تسقط بيد الإفرنج. وذلك في ظل حالة الإحباط التام الشبيه بالشلل، التي كانت عليها القى السياسية والعسكرية في العالم الإسلامي. بعد أن نجحت الحملةالصليبية في الأولى في اختراقه والوصول إلى قلبه، لتحتل مدينة (القدس) وترتكب فيها واحدة من أبشع المجازر في التاريخ. الأمر الذي كشف كم كان عالم الإسلام هشّاً عاجزاً لا حول له ولا قوة.

لم يكن في وسع أبناء (جبل عامل) أن ينظموا طاقتهم الضئيلة، بالقياس إلى قوة الأعداء، في سبيل الدفاع عن حضارتهم لولا سند خارجي. والحق أن الفضل في صمود المدينة زهاء ربع القرن يرجع الفضل فيه أولاً إلى استماتة أهلها في الدفاع عنها بكل ما وصلت إليهم أيديهم من أدوات سياسية وعسكرية. وثانياً إلى ما كانوا يتلقّونه من عون مباشر من إخوانهم أبناء اجبل في الملمات. وثالثاً إلى لادعم الذي تولاه بالتنسيق بينهما رجلان من أنبيل مَن عرفهم تاريخ تلك الايام العصيبة. هما الأفضل بن أمير الجيوش، وزير الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، وظهير الدين طغتكين بن بوري أمير

(دمشق). والحق أن (صور) لم تسقط أخيراً بعد ذلك الصمود الطويل، إلا بعد مقتل الوزير الأفضل، وعجز طغتكين وحده عن حمايتها. في وجه تحالف كافة القوى الصليبية، من محلية وغازية، تحالفاً موجّهاً إلى إخضاع واحتلال المدينة بالذات.

(5)

لكن البروز الأكبر لأبناء (جبل عامل) في ميدان الجهاد، كان مشروطاً بقيام جبهة إسلامية متراصة، وبتوحّد القوى الإسلامية سياسياً واتجاهها بكلّها نحو مقارعة المحتلين. الأمر الذي تحقق على يد صلاح الدين. حيث اندمجوا اندماجاً كاملاً في المجموعات المقاتلة التي اجتمعت من حوله. والثابت أنهم اشتركوا في معركة (حطين) الفاصلة. ثم من بعدها في كافة المعارك التي خاضعها المعسكر الإسلامي. وكان قائدهم طيلة مابقي من أيام صلاح الدين، أحد أبطال الجهاد في تلك الأيام، الأمير حسام الدين بشارة العاملي. الذي اكتسب آنذاك موقعاً هاماً جداً لدوره ودور عسكره المتميز في أعمال الجهاد. بحيث أنه اعتبر أعلى الأمراء شأناً، والمقدّم على كافة أمراء صلاح الدين. لكن الأمور تغيّرت كثيراً من بعده. وذلك بسبب النزاع المقيم الذي نشب بين أبناء البيت الأيوبي على المُلك. وكان الأمير حسام الدين أحد ضحايا ذلك النزاع.

وعلى ما كان لأهل (جبل عامل) من أثر كبير في الجهاد، فإن دورهم جرى طمسه والتعتيم عليه. تعتيماً غير مقصود حيناً، ارتكبه التأريخ الرسمي السلطوي بحكم قصوره المنهجي. ولكن من الثابت أن بعض الآخر كان مقصوداً. والحقيقة أن ما ذكرناه من صنوف جهادهم هو نتيجة لبحث دائب استمر لسنوات في مختلف المصادر. ابتغاء جمع المعلومات والمقارنة بينها. بحيث وصلنا إلى تركيب شيء مما أغفله التاريخ. لا شك عندنا أنه قليل من كثير.

إلى جنب ذلك التعتيم، فقد ارتُكب افتراءات كثيرة نالت من طهارة التاريخ االعاملي إبان تلك الفترة العصبية. وصلت إلى حد توجيه اتهامات إلى أهل (جبل عامل) بالخيانة والتحالف مع العدو، في وجه القوى الإسلامية. وبالتتبّع تبيّن لنا أن ذلك البهتان هو من صنع مؤرخي معروفين. نقدنا نصوصهم وبيّنا موضع الضلال فيها وأسبابه.

ثبت المراجع

وهي منسوقة على أسماء المؤلفين. معتمدين أشهر ما يُعرف به المؤلف من لقب أو كنية وإلا فالاسم. كما أننا لم نأخذ في النسق لفظي أب وابن

*إبن الأثير، علي بن محمد الشيباني:

ـ الكامل في التاريخ. ط. بيروت 1386/ 1966م.

*إبن إياس، محمد بن أحمد:

ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور. ط. القاهرة 1383/ 1962م.

*الحر العاملي، محمد بن الحسن:

ـ أمل الآمل في علماء جبل عامل. ط. بغداد 1385/ 1965م.

*ابن جُبير، محمد بن أحمد الكتاني:

ـ الرحلة.ط . بيروت 1388/ 1968/ .

*جعفر المهاجر:

ـ التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية. ط. بيروت 1413/ 1992م.

ـ الهجرة العاملية إلى إيران في العصر الصفوي. ط. بيروت 1410/ 1989م.

*ابن الجوزي، يوسفبن قزأوغلي:

ـمرآة الزمان في تاريخ الأعيان. ط. بيروت 1405/ 1985م.

*ابن خلّكان، أحمد الأربلي:

ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. ط. مصر، لات.

*الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان:

ـ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. ط. بيروت 1409/ 1989م.

ـ سير أعلام النبلاء. ط. بيروت 1402/ 1982.

*السخاوي، محمد بن عبد الرحمن:

ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. ط. بيروت، دار الحياة، لات.

* سعيد عبدالفتاح عاشور:

ـ الحركة الصليبية.ط. القاهرة 1963م.

*أبو شامة المقدسي:

ـ الروضتين. ط. بيروت، دار الجبل، لات.

*إبن شداد، بهاء الدين:

ـالموادر السلطانية والمحاسن اليوسفية.ط. القاهرة 1964م.

*شيخ الربوة، محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي:

ـ نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. ط. بيروت 1408/ 1988م.

*طرخان، ابراهيم علي:

ـ النظم الإقطاعية في اشرق الأوسط في العصور الوسطى. ط. القاهرة

1388/ 1968م.

*ابن طوق، شهاب الدين أحمد بن محمد:

ـ التعليق. تحقيق جعفر المهاجر. ط. دمشق 2000م.

*ابن عبد الظاهر، محي الدين:

ـ تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور. ط. القاهرة 1961م.

*عماد الدين الأصفهاني:

ـ الفيح القسّي في الفتح اقدسي. ط. مصر تحقيق محمد صبح. لات.

*العيني، بدر الدين محمود:

ـ عقد الجمان وتاريخ أهل الزمان. ط. القاهرة 1407/ 1987م.

*أبو الفدا

ـ المختصر في تاريخ أفراد البشر

*فوشيه الشارتري:

ـ تاريخ الحملة إلى القدس. ترجمة زياد العسلي. ط. بيروت ، دار الشروق، لات.

* ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة:

ـ ذيل تاريخ دمشق.ط. بيروت، لات.

*القلقشندي، أحمد بن علي:

ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا. ط. مصر، المؤسسة المصرية العاملة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، لات.

*أبو المحاسن ابن تغري بردي:

ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط.. مصر، المؤسسة المصرية العاملة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، لات.

*محسن الأمين:

ـ خطط جبل عامل. ط. بيروت 1403/ 1983م.

*محمد تقي الفقيه:

ـ جبل عامل في التاريخ. ط. بيروت 1406/ 1986م.

*محمد علي مكي:

ـ لبنان من الفتح العربي حتى الفتح العثماني. ط. بيروت 1974م.

*محمد كرد علي:

ـ خطط الشام،ط. بيروت 1389:1969م.

*المقريزي، تقي الدين أحمد:

ـ كتاب السلوك في معرفة الملوك.ط. القاهرة 1970م.

*ميخائيل زابورف:

ـ الصليبيون في الشرق. ط. موسكو، دار التقدّم 1986م.

*النعيمي، عبد القادرين محمد:

ـ الدارس في تالايخ المدارس.ط. دمشق 1367.

*إبن واصل، جمال الدين محمد بن سالم:

ـ مُفرّج الكروب في أخبار بني أيوب. ط. القاهرة 1977م.

كشاف عام

للأعلام عموماً، أشخاصاً وبلداناً وفرقاً وقبائل وجماعات ومعالم جغرافية. وقد اعتمدنا في النسق أشهر ما يُعرف به المُسمّى من كنية أو لقب أو نسبة. وإلا فالاسم ان كان أشهر ما يُعرف به. ولم نأخذ في النسق بألفاظ أب وإبن.

(أ)

ـ آسية الوسطى: 69.

ـ الآمر بأحكام الله، الخليفة الفاطمي: 28.

ـ إبراهيم علي طرخان: 32.

ـ ابن الأثير. عز الدين علي بن محمد الشيباني: 13، 14، 22، 25، 25، 29، 66، 74، 111، 111، 112، 113، 115، 116.

ـ أخويّة القديس يوحنا: 41.

ـ الأردن (انظر أيضاً: وادي الأردن): 8، 36، 53، 54، 85،

ـ أرنون، حصن، (انظر أيضاً: شقيف أرنون) 6، 43، 83.

ـ أساماة بن منقذ: 9.

ـ الإسبتارية: 41، 53، 62، 103، 196.

ـ إسماعيل بن الأفضل بن صلاح الدين الأيوبي (صاحب دمشق): 62.

ـ إسماعيل بن الحسين العودي الجزّيني: 93.

ـ الأشرف بن العادل الأيوبي: 113، 114.

ـ الإفرنج: ورد كثيراً جداً.

ـ الأفضل ابن أمير الجيوش الفاطمي: 26، 27، 28، 75، 75، 120، 121.

ـ الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين الأيوبي: 45، 58، 59، 68، 73، 75، 75، 100، 116.

ـ الألمان: 89.

ـ إنكلترا: 86.

ـ أنوسنت الثاني، البابا: 23.

ـ أوروبة: 32، 105.

ـ أوروبان الثاني، البابا: 32.

ـ أونفري دي تورون: 43.

ـ إيران: 7.

(ب)

ـ باتوليه: 48.

ـ باريش: 40.

ـ باليان الثاني دي أبلين: 53.

ـ بانياس، حصن: 26، 29، 33، 36، 57، 67، 70، 73، 74، 75، 76، 77، 100، 103، 103، 106، 106، 107.

ـ بعلبك: 53.

ـ بغداد: 89، 93.

ـ بلاد بشارة: 78، 79، 79.

ـ بلاد الساحل: 62.

ـ بلاد صور: 49، 49، 57.

ـ بلدوين (بغدوين) الثاني، الملك: 22، 24، 26، 28، 53، 53، 54،.

ـ البنادقة: 13، 28، 28.

ـ البندقية: 13، 28.

ـ بهاء الدين بن شداد: 66، 71، 73.

ـبوري بن طغتكين، تاج الملوك: 26.

ـ البوريون (بنو بوري): 23، 23.

ـ بوفور، حصن: 40.

ـ بيبرس البندقداري، السلطان: 43، 45، 62، 99.

ـ بيت لحم: 60. 110.

ـ بيت المقدس ، البيت المقدسي (انظر أيضاً: القدس): 13، 20، 36، 36، 89، 110، 110، 113، 115.

ـ ابن بيرزان: 53.

ـ بيروت: 19، 19، 59، 73.

(ت)

ـ تبنين، جبل: 77.

ـ تبنين، قلعة: 21، 22، 22، 31، 33، 35، 36، 36، 36، 38، 40، 42، 44، 45، 47، 55، 56، 57، 59، 60، 60، 62، 62، 73، 73، 74، 74، 76، 77، 100، 108، 109، 110، 118.

ـ الترك: 105.

ـ تل المعشوقة، تل المعشوق: 22، 46.

ـ تنكرد النورماني، الأمير: 20.

ـ تيرون، حصن: 40، 83.

ـ تيماء: 54.

(ج)

ـ الجاسوس: 88ٍ88.

ـ جبال صيدا: 83.

ـجبل عامل: ورد كثيراً جداً.

ـ جبل لبنان: 44، 83، 85.

ـ جبلة: 59.

ـ جبل مارون: 46.

ـ ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني: 9، 33، 35، 36، 36، 36، 37، 38، 39، 41، 58، 108، 108، 109.

ـ جبيل: 52، 53.

ـ الجرديون: 85.

ـ جزين: 44، 81ـ 94، 228.

ـ الجليل: 15، 20، 23، 36، 54، 62، 83.

ـ جنين: 53، 53.

ـ جودفري بوايون: 20.

ـ ابن الجوزي، أبو المظفّر: 88ٍ89، 89، 91.

ـ الجولان: 36، 103، 103.

ـ جويا: 48.

(ح)

ـ الحر العاملي، محمد بن الحسن: 8.

ـ حسام الدين بشارة العاملي، الأمير: 11، 45، 59، 60، 65ـ 80، 91، 100، 100، 100، 101، 105، 121.

ـ حصن أبي الحسن: 46.

ـ حطين، موقعة: 44، 54، 55، 55، 60، 70، 71، 71، 71، 72، 121.

ـ حلب: 70، 71، 85، 93، 104، 116.

ـالحلة: 93.

ـ الحلّوسية: 40.

ـ الحولة، سهل: 43، 43.

ـ حنويه: 48.

(خ)

ـ خط الساحل: 83.

ـ ابن خلّكان، أحمد: 116.

(د)

ـ دام مراريت بن سير هنري، ملكة صور: 47.

ـ الداوية: 44، 53، 53، 103، 106.

ـ دردغيّا: 41، 41.

ـ دمشق: 23، 24، 27، 29، 36، 42، 43، 43، 44، 45، 53، 53، 54، 54، 57، 62، 70، 71، 75، 75، 88، 104، 104، 104، 108، 116.

ـ دوبيه: 40، 45.

ـ ديار بكر: 69.

ـ دير كيفا: 46.

(ذ)

الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان: 77، 105.

(ر)

ـرأس البياضة: 46.

ـ رأس الماء: 103.

ـ الرافضة: 84.

ـ رشكانية: 48

ـ الرملة: 53، 53.

ـ روما: 113.

ـ رينولد دي شاتيون (أرناط) 53.

(س)

ـ سعيد عبد الفتاح عاشور: 32، 113.

ـ السلاجقة: 52.

ـ سليم الأول العثماني، السلطان: 78.

ـ سمسياط: 116.

ـ سنجوان: 41.

ـ سهل البقاع: 53.

ـ سهل المأذنة: 86.

ـ سهل مرجعيون: 43، 52، 54، 57.

ـ سورية: 58.

ـ سيناء: 28، 69.

(ش)

ـالشام: 15، 23، 35، 55، 57، 58، 67، 69، 76، 78، 85، 85، 85، 89، 93، 110، 112، 113، 113.

ـ أبو شامة، شهاب الدين المقدسي: 66، 84، 86.

ـ الشبطلّيلة: 41.

ـ شركس (جهاركس) فخر الدين الصلاحي: 75.

ـ شقراء: 40، 45.

ـ شقيف أرنون (انظر أيضاً: أرنون): 43، 44، 54، 55، 56، 62، 62، 62، 76.

ـ شقيف أرنون (انظر أيضاً: أرنون): 44.

ـ شلعبون: 40.

ـ شمع، حصن: 46.

ـ الشهيد الأول، محمد بن مكي الجزيني: 87، 94.

ـ الشوف: 85.

ـ شوف الخرّوب: 85.

ـ شوف الخيطي: 85.

ـ شوف الشومر: 85.

ـ شوف العدسي: 85.

ـشوف الميادنة: 84، 85.

ـ شيخ الربوة: محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي: 84، 85.

ـ شيزر: 73.

ـ الشيعة، الشعة الإمامية: 37، 93، 93، 93، 104، 105، 107.

(ص)

ـ الصالح إسماعيل الأيوبي، الملك: 45.

ـ الصرفند: 55.

ـ صريفا: 41.

ـ صفد: 62.

ـ الصفدي: خليل بن أيبك: 101.

ـ صلاح الدين الأيوبي: 31، 42، 44، 45، 48، 52، 52، 53، 53، 54، 55، 55، 58، 59، 66، 66، 67، 68، 68، 69، 70، 71، 72، 73، 73، 75، 75، 76، 77، 100، 101، 105، 113، 121.

ـ الصليبيون: وردت كثيراً جداً.

ـ صهيون: 73.

ـ صور: 13، 13، 19، 21، 22، 22، 22، 21، 24، 24، 25، 26، 26، 26، 27، 27، 27، 28، 29، 29، 29، 31، 33،، 37، 41، 42، 44، 45، 46، 46، 48، 48، 48، 55، 56، 57، 57، 57، 59، 59، 62، 62، 72، 73، 73،

77، 100، 110، 111، 112، 112، 118، 120، 121،.

ـ صيدا: 25، 36، 47، 55، 60، 60، 72، 88، 88، 89، 89، 110، 112.

(ض)

ـ الضنية: 85.

ـ ضياء الدين ابن الأثير: 75، 116.

(ط)

ـ طبرية: 15، 15، 20، 20، 22، 20، 22، 44، 53، 53، 62، 84.

ـ طرابلس: 19، 23، 25، 47، 53، 93.

ـ طُغتكين بن بوري، ظهير الدين: 24، 26، 26، 27، 28، 28، 29، 29، 29، 30، 104، 120، 121.

ـ طلوسة: 40.

ـ الطور، جبل: 89، 89.

ـ الطور، قلعة: 88، 89، 90، 91.

ـ ابن طوق، شهاب الدين أحمد بن محمد: 77.

ـ ابن أبي طي، محي الدين بن حميدة الحلبي: 66.

ـ طير دبّا: 48.

(ظ)

ـ الظاهر بن صلاح الدين الأيوبي: 70، 71، 75، 116.

ـالظنيون: 85.

(ع)

ـ العادل الأيوبي، الملك: 45، 68، 75، 75، 75، 89، 100، 100، 113.

ـ عبّا: 48.

ـ العراق: 7، 69، 105.

ـ العريش: 28.

ـ العزيز بن صلاح الدين الأيوبي: 74.

ـ عكّا: 19، 33، 35، 36، 48، 48، 54، 67، 70، 71، 72، 72، 77، 89، 100، 109، 112، 113.

ـ العلويون: 85.

ـ عماد الدين الأصفهاني: 66، 70، 71.

ـ العيني، بدر الدين محمود: 110.

(ف)

ـ الفاطميون: 23، 23، 24، 26، 27.

ـ ابن فتحون: 68، 69.

ـ أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل: 40.

ـ فرنسا: 32، 73.

ـفرّوخ شاه الأيوبي: 53، 54، 54.

ـ فرون: 40.

ـ فريدريك الألماني، الامبراطور (الانبرور) 45، 60، 61، 62، 73، 110، 110، 111، 112، 112، 113، 114، 115.

ـ ابن فضل الله العمري: 40.

ـ فلسطين: 8، 15، 15، 20، 20، 23، 28، 36، 36.

ـ فوشيه الشارتري: 14، 22، 32.

(ق).

ـ قانا: 77.

ـ القاهرة: 26.

ـالقدس: (انظر أيضاً: بيت المقدس): 14، 14، 15، 15، 19، 19، 19، 20، 20، 21، 21، 22، 23، 24، 28، 29، 32، 32، 33، 42، 47، 53، 53، 55، 55، 59، 60، 61، 61، 62، 84، 100، 105، 113، 114، 118، 120.

ـ قراجا: 75.

ـ القُرين، حصن: 112.

ـ قضاء صور: 48.

ـ ابن القلانسي، حمزة بن أسد: 21، 25، 103، 104، 104، 106.

ـ القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي: 70.

ـ قيسارية:، قلعة: 112.

(ك)

ـ الكامل بن العادل الأيوبي، الملك: 45، 60، 61، 61، 110، 111، 113، 114، 115.

ـكرك الشوبك: 53.

ـ كسروان: 85.

ـ كلير مونت: 32.

(ل)

ـ اللاذقية: 41، 59.

ـ لبنان: 79.

ـ لبنان الجنوبي: 79.

ـ الليطاني: 53، 54.

ـ ليو بولد السادس، دوق النمسا، 89.

(م)

ـ مارون، حصن: 46.

ـ المتاورة: 85.

ـ المتاولة: 85.

ـ أبو المحاسن ابن تغري بردي: 29.

ـ محسن الأمين: 40، 68.

ـ محمد تقي الفقيه: 68.

ـ محمد علي مكي: 104، 104، 107.

ـ المدينة المنورة: 54.

ـ المرتضى، علي بن الحسين: 93.

ـمرج دابق: 78.

ـ المسجد الأقصى: 15، 111.

ـ مسعود (أمير صور من قبل طغتيكن بن بوري): 26، 27، 28.

ـ المسية: 33.

ـ المسيح علبه السلام: 89، 110.

ـ مشغرة: 88.

ـ مصر: 26، 28، 28، 58.

ـ معركة: 77.

ـالمعظم عيسى الأيوبي، الملك: 45، 75، 113، 114.

ـ المفيد، محمد بن محمد النعمان: 93.

ـ المقدسي، محمد بن أبي بكر البنّاء: 87.

ـ المقريزي: 114.

ـ مكة: 54.

ـ المماليك: 78

ـ المنصور سيف الدين فلاوون، السلطان: 47، 48، 57.

ـ الميادنة: 84، 85، 85، 86، 88، 88.

ـ ميخائيل زاخاروف: 32.

(ن)

ـ نابلس: 15، 15، 53، 53.

ـالناصرة: 60، 110.

ـ النبطية: 43، 54، 86.

ـ النحارير: 40.

ـ نصرة الدين أمير ميران: 103.

ـ النعيمي، عبد القادر: 76.

ـ النفّاخية: 48.

ـ نور الدين محمود بن زنكي: 52، 103، 104، 106. 107.

(ه)

ـ الهند: 7.

ـ هنغاريا: 89.

ـ الهنغاريون: 89، 91.

ـ الهنغري: (انظر: اونفري دي نورون).

ـ الهنكري (أندرو الثاني ملك هنغاريا): 88، 88، 89، 89، 90، 91.

ـ هونين، جبل : 43، 77.

ـ هونين، قلعة: 33، 33، 35، 36، 40، 43، 44، 55، 57، 62، 76.

ـ هونين، ناحية: 77.

ـ الهياطلة: 105.

(و)

ـ وادي الأردن (انظر أيضاً: الأردن): 15، 15، 39، 42، 118.

-**ابن واصل**: **74**.

- **وليم دي بورز**: **13**، **28**.

(ي)

- يارون: 40.

- يافا: 36، 110.

- يوحنا، القديس: 41.

فهرس الموضوعات

المقدمة 7

توطئة 13

(الفصل الأول) الاحلال ومراحله .....17_ 62

١ _متى امتد الاحتلال إلى (جبل عامل) 19

٢ _المرحلة الأولى من الاحتلال 23

٣ _المرحلة الثانية 31

٤ _المرحلة الثالثة 52

(الفصل الثاني) حسام الدين بشارة العاملي

أمير (جبل عامل) .....63_ 80

(الفصل الثالث) جزّين، الأرض الحرة .....81_ 94

(تمهيد) 83

١ _الأصول السكانية ل (جزّين) 84

٢ _(جزّين) ودورها في الجهاد 87

٣ _ (جزين) باعثة النهضة 93

(الفصل الرابع) صورة (جبل عامل) في المصادر
المعاصرة للحركة الصليبية 95ـ 116
تمهيد 97
١ ـالتأثيرات المذهبية وعلاقتها
بصورة (جبل عامل) في المصادر 99
٢ ـمراجعة نقدية لنصوص عن أهل
(جبل عامل) تحت الاحتلال 102
خلاصة عامة 117
ثبت المراجع 123
كشاف عام 127
فهرس الموضوعات 143